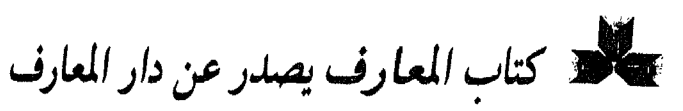
أبو زيان السعدي

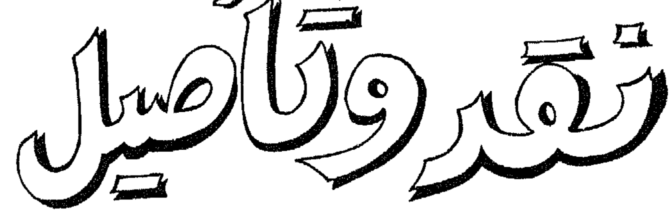
نقد وتأصيل






كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



أبو زيّان السّعدي



دار المعارف للطباعة والنشر

سوسة ـ تونس



كلّا . . ان الغفران ليس خرافة

تحتل قضية التراث في الفكر العربي المعاصر، منزلة ممتازة وخطيرة، استقطبت اهتمام المفكرين والعلماء والأدباء والساسة ورجال الدين فترة طويلة، تجاوزت القرن على الأقل، فمنذ فجر النهضة العربية الحديثة، أقبلوا يتفحصون حضاراتهم القديمة، الزاخرة بصنوف الرأي والعقيدة والأدب والتاريخ والتمدن والعمران، يقابلونه بما استجدّ لديهم من كشوف علمية حديثة، ومن معرفة تتغير معطياتها، وتنقلب من لحظة إلى أخرى، ناظرين به الى ما تطور إليه وضعهم الاجتماعي، الذي يضطرب وسط عالم حديث، لا يحفل بغير العلم والمنطق سبيلا إلى البناء، ولا يكترث بغير القوة والصناعة والاختراع طريقا الى البقاء، فبعثوا منه ما ظنّوه يتلاءم مع حياتهم الجديدة، وما قدروا أنه يفيد في تحديد وجهة نظر متطورة، تستطيع أن تثبت أمام التحديات العاصفة، وأمام سيول الغزو الفكري، التي أخذت تزحف وتتقدم وتطوّق، حتى أوشكت أن تتغلغل في الكيان، وأن تضرب الخصوصية المتفردة، التي لا يكتمل بدونها وجود قادر على العطاء والبذل، فكانت حركة التجديد الديني والعروة الوثقى، وكانت حركة التجديد السياسي والاجتماعي، وكانت حركة التجديد الشعري والأدبي، وظهور أنواع أدبية جديدة كالقصة القصيرة والرواية والمسرحية، وما إلى ذلك بسبيل.

وإذا كانت حركة التجديد الديني والاجتماعي والسياسي ، قد توزعت بها السبـل ، وطـرأت عليها عوامـل خارجية وداخلية ، تلقـائية وغير تلقائية ، غيرت من صورتها الأولى ، ونهجت بها منـاهج مازالت تتناظر وتتصارع ، قد تنتهي الى إيجـابيات نؤملهـا ، فان حركـة التجـديد الأدبي والفكري ، أخذت تتعثر وتنتكس ، وقد يصيبها اليبس والانكماش ، فقد رانت مفـاهيم خاطئـة ، يريد البعض إذاعتهـا ونشرهـا وتعميمها ، حتى تنقلب صورة التراث في وعينا ، من صورة قوة الى صورة ضعـف ، من موقـف عزة إلى موقف اذلال ، من سلامة ذوق ومنطق ، إلى فجاجة خاطر وحمق نظر ، وهم لا يتوسّلون في ذلك ، بغير الخبث والدسّ والوقيعة ، فاذا تحدثت إليهم مستفسرا مراجعا منتقدا ، أجابوك بأنهم يجدّدون ، وأنهم يريدون أن يقدموا لأجيالنا الجديدة ، جوهر التراث مصفّى ، عاريا من كل قشور ، غير أنّك ما ان تتمهل ، لتنظر متفحصا بعض أعمالهم الأدبية ، حتى تصاب بالخيبة نفسك ، وحتى يقوم في وعيك سؤال ملحّ : ماذا يريد هؤلاء على الحقيقة ؟ إنهم بالتأكيد واحد من إثنين ، إما أن يكونوا رافضين للتراث رفضا كليا ، وللقيم التي يحملها الى الأجيال ، وإما أن يكونوا أصحاب بلاهة ومجون ، يعجزون أن ينفذوا إلى ما في التراث من حقيقة امتداد ، وقوة نقاء تتحدى الزمن ، لما لها من قدرة على البقاء والنقع .

فهذا عز الدين المدني في تونس، يقدم عملا جديدا بعنوان " الغفران " يسميه مسرحيّة، يتسلط فيه على رسالة الغفران لأبى العلاء المعري، فيشوّهها ويعبث بمفرداتها، ويحطم صورها الجميلة، وينحرف برأي صاحبها، عن وجهته التي عرف بها، بل ويزوّر حقيقة الرجل ومذهبه، فيدفعه إلينا أبيقوريّا، كافرا بالحدود والنواميس، رافضا لمواضعات المجتمع والناس، ناكرا لمن كان به الوجود وجودا، ولمن كان به الحق حقا، يمهّد لذلك بانه درس أبا العلاء في كتب أدباء النهضة، فلم ترق له صورته فيها، ولم تعجبه الآراء التي أطلقوها عليه، فقد " حشد له أهل الدراسات النهضوية ومن معهم، مجموعات من الخرافات، توجونه (كذا) بها فجلبوا بها الشفقة عليه، والرأفة به، فكأنهم يهمسون بين سطور كتبهم : لو لم يكن أبو العلاء المعري أعمى لما كان عبقريا، ولو لم يكن رهن المحبسين لما أجاد في النثر والشعر ولزوم ما لا يلزم، وليس من الغريب في شيء إذا أدركنا ان الذي نفخ في هذه الخرافات هو أديب ضرير معاصر، وتلاميذه الذين رأوا أن شرط العبقرية هو العاهة، وقد فاتهم ان العبقرية - ان وجدت - انما هي نتائج طلب وترويض وتحمل وتحصيل وتأمل مدمن، وشغل لا ينقطع ووعي الحوادث والعصر والزمان ودنيا الناس والكون لا يفل ولا

يتكسر، " (1)، فالرجل كما ترى يدفع أعمال طه حسين وعباس محمود العقاد وأمين الخولي والدكتورة بنت الشاطئ وتوفيق الحكيم، فلا يراها إلا خرافات وأوهاما يجب أن تزول، وأن عمى طه حسين هو الدافع الأساسي لدرس أبي العلاء ورفعه الى مصاف العبقريين الكبار، وانه ليخيل إلي أن الرجل لم يقرأ طه حسين، ولا تلاميذ وأصدقاء طه حسين كما يزعم، وانما هو يركب فكرة معيّنة، تسلطت عليه وأقفلت دونه أبواب التحرّي والصدق، فيما يقع بيننا من أشياء، تلك هي علة الغرور، ونواقص الضعف والقصور، فقد رأى نفسه في وقت قصير، يحظى بحديث يشار حوله، وبجلبة تصفيق من مقاعد حجرية (2) لمسرحيات غرقت كلماتها في بحار ضوء صاعدها بط، ودقّ طبول جوفاء، تتهاوى مطارقها على الأسماع، فاذا هي لا تصيخ، وألوان من مزق الثياب النكراء، تداعب فضول الفضوليّين فاذا هم لا يستنكرون، لو قرأ طه حسين وزملاءه وتلاميذه، لما ادّعى ذلك، فان طه حسين لم يصوّر المعري تصوير الخيال المظلم، وانما هو درسه درس الأكاديمي الباحث المتعمق، الذي يعمد النص المؤكد، والتاريخ المقيد، والذي يقارن الخبر والرواية بأمثالها، فيفاضل ويستنتج الحكم، في غير تعمل ولا افتعال، وما

---

1 ـ مسرحية العفران، تأليف عز الدين المدني، ص : 6، دار المعرفة، تونس، 1977.

2 ـ إشارة إلى مسرحية له، عرضتم بالمسرح الروماني بقرطاج.

علمنا قط، فيما كتب طه حسين والحكيم والعقاد، انهم توقفوا عند ظاهرة العمى في شخص أبي العلاء، أو أنهم وجدوا فيها دليله الأوحد في النبوغ والعبقرية، الا ان يكون ذلك لتتبع آثارها النفسية، في شعره ونثره، أو انعكاسها الواضح في ملكته الخيالية التي كتب بها رسالة الغفران، خاصة إذا تذكرنا انهم أسبق الناس الى بعث التراث في صورته الجديدة، من خلال استيحائهم لجوانبه المضيئة، القادرة على أن تفيد وتعطي، وطه حسين والرواد جميعا، ليسوا معصومين من الخطأ، ولا هم يزعمون ذلك، وانما هو الحق ينبغي أن يشار اليه، والانصاف يجب أن يناله أهله.

ولعل عز الدين المدني يعتقد ـ وربما بعض الناس في تونس يظاهرونه في ذلك ـ أنه السابق إلى إعادة تنسيق بعض صور التاريخ القديم، فليعلم أن المعري نفسه، قد بعثه العقاد الى عصرنا، ليواجه قضايا جديدة، وحياة جديدة، من خلال كتابه " رجعة أبي العلاء "، وان الحكيم تجاوز التراث العربي، كأهل الكهف وشهرزاد والسلطان الحائر، الى التراث العالمي، يقبس منه، ويخرج منه روحا شرقيا، نألفه حين نقرأه، ونعجب به حين نراه في ملاعب التمثيل... فأين ذاك من هذا... !! ؟

وادعاء المدني، ينبغي أن يوضع في إطار أعم، هو تلك الدعوة التي رأيناها مرارا، تظهر وتختفي ثم تعود، والزاعمة ان

[illegible]

[illegible] النص المسرحي الذي قدمه [illegible] مسرحية عن أبي العلاء أحمد [illegible] من القدامى غفر الله لهم [illegible] ونلاحظ من خلال السياق شيئا من [illegible] في كتبه تحت اسمه "كان الله له" [illegible] ويقوي ظني قطعت شوطا [illegible] ذلك بعد قليل

[illegible] هذه المسرحية من عشرين مشهدا، أو موقفا [illegible] يسمي ذلك، وهي تستغل بعض ما جاء في رسالة الغفران لأبي العلاء، كشخصية علي ابن منصور [illegible]، فقد ذكره المعري مرة أو مرتين، أما غير ذلك مما هو مذكور في رسالة الغفران من أشخاص وحوار [illegible] على الإطلاق في هذه المسرحية، ولكنك تجد

[illegible] في دراسة جامعية [illegible]

بين اللحظة والأخرى، أسماء كالصراط وكلمات كزقفونه، يوردها مورد الهزء والسخرية، ولكنه بجانب ذلك، أضاف أشياء عديدة، وأسماء غريبة، كالمرآة والقنديل والباز والشجرة، وصاحب المذهب وصاحب الكلام وصاحب المفتاح وصاحب العدد، وساعد ومسعد، والأمير صالح بن مرداس، صاحب حلب.

هذه المسرحية، تخلو من الحدث الذي ينمو ويتطور، ويصل الى لحظة التنوّر، كما نجد ذلك عادة في المسرحيات الجادة، وإنما هي تقوم بالحوار والحوار وحده، يظل يتردد بين هذا وذاك، من شخوص المسرحية حتى النهاية، ولا صلة لها بمكان معين تقع فيه، وان ادعت انها وقعت في معرة النعمان، وبين معاريج السماء، كذلك لا صلة لها بزمان معروف، ضرورة أن الشخصية الرئيسية فيها، وهي صالح بن مرداس، شخصية رمزية، هي الحضرة الالهية المقدسة.

وفكرتها المركزية، ذات محورين اثنين، يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا، أما أولهما فهو " الغفران " الذي يتعلق به المذنبون من بني آدم، يخطئون ويأثمون، ولكنهم دائما يأملون أن توضع عنهم أوزارهم، من قبل رب عزيز مقتدر، ولكنه رحيم، وهم في المسرحية يتشبثون بهذا الأمر أشد التشبث، ويرتكبون مع ذلك الموبقات، والمعري يشككهم في ذلك مرة، ويسخر منهم مرة أخرى، ويكشف لهم في النهاية،

أن الغفـران الالهي خرافة !! أما ثانيهما فهو الوجود الالهي
ومواقف المسرحية تعرضه عرضاً فجًّا، سطحيا لا عمق فيه و
تفكير، هناك مظاهر لهذا الوجود، يخبر بها المخبرون، ويعل
عنها المعلنون، ولكن المعري إذ يعرج الى السماء، يكتشف أ
أكذوبة الأولين والآخرين، وبذلك ينتفي الغفران، لانتف
سببه ومصدره.
فصاح بن مرداس ـ رمز الألوهية المطلقة، يتسلّط على الد
" معرة النعمان " :

أبو العلاء : وماذا يريد منا الأمير صالح بن مرداس ؟
ساعـــد : أن تمتثلوا له بدون مناقشات، فهو البأس
ابن القارح : أن تطيعوه فرادى وجماعات، فهو القوة
سعـــد : أن تخضعـوا له بدون اعـتراضات، ولا نغنغار
حتى تكونوا أهلا لعفوه وغفرانه عنكم.
أبو العلاء : ومن هو الأمير صالح بن مرداس ؟
ابن القارح : هو وحيد زمـانـه، وفـرد دنياه، فكل وصف
يقصر عنه
مسعـــد : وهـو أسـد الدولة، تخضع له الأمم، تمتثل
الجبابرة، فهو يسمو على كل وصف
ساعـــد : وهـــو صاحب التقـوى والحق وأهـل النجـو
والعـدل والطاعة، فمن أطاعه عاش الرضى
ومن عانده عاش اللعنة.

أبو العلاء : الى من ينتسب ؟

ابن القارح : لا ينتسب الى احد، (5)

فقد توضح الامر إذن، وكشفت المسرحية عن طابعها الفكري ، وبتنا الآن في شوق ملح ، ننتظر بحث أبي العلاء عن الحقيقة الالهية ، ونعجب في الوقت نفسه لعسف العاسفين ، من المتكلمين باسم الاله ، ومن الناطقين في كتائبه الخرساء :

أبو العلاء : صفوه لي أدق الوصف

مسعد : من رآه ، من تخيله ، فهو ظاهر مكتوم .

ساعد : من شاهده ، من تصوره ، فهو حاضر محجوب . (6) أخذت الأضواء تسطع بأشد مما كانت ، والصورة الحقيقية لصالح بن مرداس تبرز معالمها ، وتكتسب لها صفاتها الالهية ، ولكن ماتزال هناك صفات اخرى ، لابدّ من تعدادها :

ساعد : فنحن لم نتصل به الا عن طريق آخر حجّابه

مسعد : حين نسأل آخر حجابه بمن اتصلت ، يجيب اتصلت بآخر حجابه ، وهو كسلسلة لا تنقطع

---

5 ـ نفس المصدر، ص : 50 .

6 ـ نفس المصدر، ص : 50

ساعـــد : فحظيرته محروسة، لا يدنو منها أحد الا بإذنه .

مسعـــد : فنـــحـــن لم نره، ولم نـســمــع صوتـــه، ولا نعـــرفـــه. (7) والعـــونـان الالهيان " سعـد ومسعـد " يطلبانْ إلى أبي العلاء، أن يطلب العفـو والمغفـرة، رغم ان المسرحية لا تبين لنا ذنوبا ارتكبها المعري، فيرفض بشدة " ولماذا، فلست بمذنب حتى يصفـــح " (8). وتمتـلئ نفس أبي العلاء عزما، في أن يصل الى الحقيقة، حتى تزول شكوكه، وعندها يمكن أن يطلب الصفح والمغفرة " فقد حان وقت الرحيل عن المـــدينـــة، فصـــوت الـــنـــفـــير يصرخ في الســـاوات " (9)، وامتـطى مع أصحـابـه الحصـــان المجنّـح، وأخـذ به طريق العروج، وكانت هناك في السماء، بوّبات سبع، لابد من المرور منها، فكل منها يسلم بعضه الى بعض، وأمـــام كل باب ينـــعـــقـــد حوار، تثـــار فيه مشكلات، وتتعدّد فيه أسئلة، ولكن لا يقين ولا قرار، حتى يكـون البـاب الاخير، ونفس أبي

7 ـ نفس المصدر، ص : 51 .

8 ـ نفس المصدر، ص : 51 .

9 ـ نفس المصدر، ص : 55 .

العـلاء تتلظى شوقا لمعرفة ما سيكون هناك،
ولكنه لا يجد شيئا "يدخل الباب المخلوع فلا
يجد شيئا" (10).

لقد انتهت المسرحية إلى عدمية مطلقة، بأن الكون لا مدبّر له، وان الانسان كان في وهم كبير، لما اعتقد في خرافات، تآمر بها المتآمرون، من قدامى ومحدثين :

أبو العلاء : كذبوا علي : كنت أترقب أن أدخل إلى حظرة
صالح بن مرداس، وإذا بالفضاء خاو، كنت
أتمنى أن ألقـاه خلف هذا الباب، وإن قلبي
لمفجـوع، صالـح بن مرداس خرافـة، وهذه
الأبـواب ضروب الخـداع، أريد أن أؤمـن
بشيء، أن أتشبث بشيء، أن أتعلق ولو بخيوط
العنكبـوت، فراغ أفرغ من الفراغ ؟ يا هول
نفسي من أخـرج هذه اللعبة ؟ من دفعني إلى
هذا الـطريق ؟ كيف أتعبت نفسي، وعنفت
ضميري، سراب والله سراب، أيها الناس لا
شيء خلف الباب . .

البـــاز : أنت، انت جوهر فرد، قيمة السماوات والأرض، انقـذ نفسـك من نفسكد لأن المهدي المنتظر لن يخرج، إن الغفران خرافة (11).

---

10 ـ نفس المصدر، ص : 75 .

11 ـ نفس المصدر، ص : 75 .

اذن فالالـه خرافة، لفّقتها أجيال وحضارات، وتواطأت على ترويجها قوى متآمرة، لها مصالح وأهداف معيّنة على مدى القـرون، وان الباحث المتأمل، ما إن تهفو نفسه الى نسمة رضى وغفران، حتى يكون قد وقع في خرافة أشد !!

وان العجب ليأخذ نفسك من كافة أقطارها، حين ترى عز الـدين المـدني، يطرح قضية خطيرة كهـذه، بمثل هذه السـذاجـة، وهـذا الغبـاء الـذي لا ضريب له، بين اقوام الكاتبين وغير الكاتبين، فهل من السهولة بمكان، أن تعلن رأيا بمثل هذا التأكيد والجزم، وبمثل هذه التقريرية الجافة، دون أن تقـدم بين يديه ما يدعمـه وينهض به، ليخرج من حدود الخاطر المفتعل، الى قضية تتساند بمنطقها في الفهم والادراك، وتجـد لها حظهـا الأدنى الضروري في عقـول الباحثين والدارسين، فان أكبر الفلاسفة الماديين، قضوا أهم فترات حياتهم، في درس هذه القضية، يبحثـون وينقبـون ويتأملون، دون أن ينتهوا الى خاتمة يحسم بها الجدل ويزول الاشكال، ولو وصلوا إليها لاقتنع بها كل ذي عقل ونظر، لأن العقل المجرد لا سبيل الى ان يحيط بقضايا المصير الانساني، وما يتعلق بها وراء المادة والطبيعة، وقد انتهى " كانط " كبير فلاسفـة العصر الحديث، الى انكفاء العقل عن أن يتسلط على موضوعات لا تستجيب لها قوانينه، التي هو بها عقل، ولو ان صاحب المسرحية، كتب بحثا، حشد له جهده، وجمع فيه

آراء ونظريات ، لقلنا ان الرجل يبحث ويريد أن يصل إلى الحقيقـة ، فامـا أن يعـرض أفكـارا هوائية ، لا تسـانـد إذا امتحنتها ، ولا تثبت اذا قابلت بعضها ببعض ، فان ذلك هو الخسران ، وهــو العمــل الــذي ينبغي أن يضيع في أقبية النسيان ، وجــدير بأن يلام صاحبــه ، خاصــة وهي قضية أسـاسية وجوهرية في وجودنا الحضاري العربي الاسلامي ، وإنه لعيب أشد من العيب ، أن تتحدى المقدسات ، ويمس الناس في أنفس ما يعتقدون ، وأجل ما يبنون عليه تفكيرهم وأسلوبهم في المعاش والمعاد ، إن الحريات الأساسية يكفلها القـانـون ، ولكن العبث بالعقيدة ، والسخرية بالثوابت من فكرنا وحضارتنا ، لهو نفي لكل حرية خاصة وعامة ، وخرق صريح للقوانين التي تواضعت عليها الشعوب والمجتمعات ، ولوجب بالتالي ان يدافع الناس عن أنفسهم وعما يعتقدون .

ولقد وصلت به قمة التحدّي ، إلى أن يرسم على الغلاف الأخـير من مسرحيتـه ، أشكـالا وكلمات ، كلها عبث بالله وأنبيائه ، فاسم الله وضعه وسط شكل مربع ، كتب تحته ـ فيات ـ 127 ـ وسمير العيادي (12) نبي الله ، والطيب الصديقي (13) نبي الله ، وعز الدين المدني (14) نبي الله ، نعم هكذا بالحرف .

---

12 ـ كاتب تونسي .

13 ـ مخرج مسرحي ، مغربي ، اخرج مسرحية الغفران ، وقدمها في الرباط ، ولم يتيسّر له ذلك في تونس .

14 ـ انظر الغلاف الخلفي للمسرحية .

إن هذه المسرحية، حلقة من سلسلة طويلة، عرفنا بداياتها منذ مدة طويلة، ولم يكن عزّ الدين المدني هذا إلا آلة يدفعها آخرون ثم يختفون وقد رأيناهم أواخر الستّينات، يعزّزون موقفه، ويقفون إلى جانبه، حينما كتب نصوصا قصصية، يتهجّم فيها على القرآن، ويسخر من أسلوبه البيّن، ويتنكر فيها لكل القيم الدينية والفكرية الاسلامية، وقد جعل عنوانا أصليّا لكل نصوصه، سمّاه "الانسان الصفر" وبالرغم من أن الاستنكار والرفض، شمل تقريبا كل الأوساط الثقافية والشعبية، إلا أن مجلة الفكر وصاحبها محمد مزالي، وجماعة أخرى، مشبوهة الثقافة والانتماء، صوّرت عمله بأنه تجديدي وهام، وهكذا أصبح رفض التراث وتشويهه، عملا ينبغي أن يشدّ من أزر صاحبه، وأن تكفل له كل ضروب الحماية المادية والمعنويّة، إلى درجة أن محمد مزالي، صار يتغنّى في كل آن بأنه شديد الاعتزاز بكتابات المدني، وأن مجلّته لها الفضل الكبير في إشاعتها بين الناس.

ولكن مع ذلك، فإن هذا العمل، وإن تعدّدت حلقاته، يبقى دائما صغيرا، لا قدرة له على الامتداد، معزولا في دائرة ضيّقة من الاستلاب الفكري الأجنبي، وسط حضارة وتاريخ ظلت شمسهما تسطع قرونا وقرونا، تقدم الخير والحق والسلام، لكل الناس والشعوب، وسيبقى صاحب المسرحية، دائما، كالذي أشار إليه الأعشى الأكبر، حين قال:

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فلمْ يضرها وأوهى قرنه الوعل

لا . . للرّاية السوداء !

ماذا تريدون لا مال تيسر لي

فيستماح ولا علم فيقتبس

أنا الشقي بأني لا أطيق لكم

معونة وصروف الدهر تحتبس

ولكنك مع ذلك يا أبا العلاء، تقتحم في عزلتك، ويفزّع ركنك الأثير اليك دائما، وتفسر همساتك الخجول، بأنها الرعد الذي يزلزل الأرض والسماء، وتشرح كلماتك الرصينة، بأنها القواصم التي تقتلع الجذور، ويرى شخصك الناحل، في ضوء شمعة ذابلة، ماردا أسطوريا، كلما همّ بالحركة أو همّت به، الا وانداحت فلوات من حوله وبحار، تنشق لها الحجب المحجّبة، وتهتك لها الاستار المغيبة، من خلف أبواب شيّدت بالايمان، وأقيمت محصنة باليقين، فاذا الحضارات والنبوءات والناس من أصحابها واهمون.

نعم إن صورتك، تبدو لنا الآن هكذا، في مرآة عز الدين المدني، ولو تأملت فيها جيدا، لأدركك الفزع الأكبر، ولاخذتك رعشة الاستياء، ولتحدثت الى من حولك بخفيض صوتك، كما كنت دائما : ما شأن هذا الولد بي، ينسب إلي

قولا غير منسوب، ويدفعني إلى مواقف لعنت أصحابها دائما، ألم يقرأ الجزء الثاني من غفراني، ولكني أحسبه قد فتنته العاجلة، وإنها لذات أحابيل، فاغتر بها يصير اليه من تلبيس يظنه حقا، ومن سراب غواية يتوهمه صوابا، ومن خلّب شهرة يظنه مجدا، لقد علمت كلفا شديدا له بالأصفار، يجلس إليهم في مواقيت الفجر والمساء، (1)، ويلتقي بهم بين ذلك في الاثناء، فيقيد أحوالهم العاثرة، ويدفعها الى الأغرار فينبهرون، أوصل به الزيغ الباطني، أن يربط بيني وبينهم سببا، ويعقد لي معهم صلة، انقلوا إليه نصيحة، لن ينتصح بها، وقولا لن يستمع اليه : إن التقنع بالاصباغ والألوان، لا يخفي سيماء النفس والوجه، وإنّ المداورة والمخاتلة، دوائر مقفلة، صاحبها في النهاية، السجين والسجّان، الضحية والجلاد، ليبرز في ضوء المصابيح حتى يرى، فما ظلال القامات المديدة والقصيرة بواق، وما حادثات التاريخ، يغيرها ويتقحّم عليها وينفث فيها بمجد، فانما الكلمة الحق لصاحبها الحق، وانما الرأي الفاتح لصاحبه الفاتح، فلمَ لا يعقد حوارا حول نفسه وفكره، ويعرضه للتشخيص، فقد نرى فيه صوابا أو بعض صواب، أو خطا أو بعض خطأ،

---

1 ـ اشارة إلى قصص " الانسان الصفر " حيث جعل لها عناوين، حديث الفجر، حديث الظهر، حديث المساء.. الخ .

يجوز أن ينال به ثناء أو تصفيقا، جدير به كل من أبان عن نفسه، أفصح أم لم يفصح، غير أن كل ذلك لا يفيد، والكثيرون لا يعون، ومن قديم كان العناد والباطل توأمين، وكم ضاعت بذلك حقائق، وشاعت مكانها ضلالات وأوهام، وتلك هي المعضلة والمأساة، فـ :

إذا كان علم الناس ليس بنافع

ولا دافع فالخسر للعلماء

قضى الله فينا بالذي هو كائن

فتم وضاعت حكمة الحكماء

ليس هذا رسما تخييليا، لما يكون عليه موقف أبي العلاء، لو قرأ ما يكتب عنه هذه الأيام، فقد كان دائم الحذر من أن يؤول كلامه، فيخرج عن الوجهة التي قصد إليها، وإن شكه في الناس لمعروف، وسخطه على الدنيا وأهلها، أشهر من أن يدل عليه.

غير أن سؤالا وجيها يمكن أن يثار، لَم لا نعيد النظر في تراث المعري، غفرانا كان أو غيره، بل وفي سائر كتب التراث بعامة؟ هل هي من القداسة بدرجة تتأبّى معها عن كل تأويل أو تعديل أو إضافة؟ الذي لا شك فيه، أن مقتضيات أحوالنا المعاصرة، ومتطلبات ظروفنا الاجتماعية والفكرية

والثقافية، وما يتصاخب بينها من آراء ونظريات وإيديولوجيات، تدعونا بالحاح، كما لم يكن في أي وقت آخر، أن نرتد الى تراثنا فندرسه ونتمعن فيه مليّا، نتمثل مضامينه، خفيّها وظاهرها، للظفر بما يكمن فيها من رؤى ورموز ودلالات، تنير درب الحيرة الذي يتخبط فيه الكثيرون، وتسلك وقائع حاضرنا المبعثرة، وملابساته الشائكة، في منظومة التاريخ الهامة لأمتنا العظيمة، ولكن التعقيد والتلبيس في المنهج الذي نتوخّى، والأسلوب الذي نتبع، أو هو - ان شئت - في النظرة الجديدة المحتملة التي نتبنّى، نتفحص بها مجاهل التراث، الذي تتساند فيه الأقضية والمدارس والانظار العقلية، في ارتحاب لا حد له ولا قيس، ذلك اننا نجد أنفسنا إزاء أمرين متعارضين تماما :

أولهما : دراسة موضوعية محايدة، تنكشف بواسطتها طبيعة القضايا التي أثيرت، وحقيقة المواقف الفكرية والأدبية والفلسفية التي اتخذت، وخفيّ الأساليب التي أبدعت، فنرى العقيدة والمذهب والرأي، والموقف والخبر والتناقض والجدل، وقد تصفّت جوانبها، وانتفض عنها الغبار الزائف، وتخلى عنها التأويل المغرض، فبدت حقيقتها للأجيال كالبلور نصاعة، وتحددت منها الأبعاد، فاحاطت بها الرؤية، وتقيّدت بالاحاطة، وصحّ بها الانتفاع، يستوي في ذلك البحث العلمي المدروس، وفق قواعده المتعارفة، أو الاستلهام الفني

المجرد، بضوابطه الابداعية التي لا تخفى ، وغير خفيّ أن هذه النظرة، تلتزم بحدود التراث المرسومة، وتحتفي بالحفاظ على معالمه وإبرازها، في المستويات التي حلق فيها أصحابها المبدعون، ولهم بعد ذلك، أن يكون لهم موقف ورأي، وليكن ذلك الموقف شجبا واعتراضا، لا ضير في ذلك، بعد أن قدموا بين يديه ما يتم به التقابل، وتصح به الموازنة، والمنطق العقلي خير ضمان للمفاضلة والترجيح، تشهد بذلك أعمال المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته في العصر الوسيط، وأعمال الدكتور احمد امين في الفجر والضحى والظهر في الغصر الحديث، وسواهما من الكتاب والباحثين، في مقدمتهم بلا جدال، توفيق الحكيم، فقد اتخذ التراث مادة خاما، يسوي منها بحسّه الفني المرهف، وبسعة معرفته، صورا جميلة، وأخيلة بعيدة، وآراء نافذة، لا تتنكّر لمصدرها في القديم، ولا تغترب عن عصرها في الحديث، وهو حينما يستلهم التراث ويستغله كإطار تاريخي أحسن استغلال، يحرص على صورته، فلا يكسرها في الأذهان، وانما ينمّيها ويضيف إليها، بما يجعلها تترابط في احكام، بالواقع العربي الجديد، وتلتقي في عفوية بقضايا الفكر الفلسفي المعاصر، ولما انشأ مسرحية ـ أهل الكهف ـ وأدارها حول قضية الصراع بين الانسان والزمن وهي قضية فلسفية تتجدد باستمرار، رجع الى القرآن والتاريخ المصري القديم، فالّف بين الأجزاء

المتبـاعـدة، وجعلهـا تتـماسـك، لا تتنكـر لهذا ولا لذاك، " فعقلية الكـاتب الغيبية، جعلتـه ينفعـل بالمعجـزة في الاسطورة، وأساسها أن يسلم أهل الكهف من فعل الزمن، في أثناء نومهم الذي امتد نيفا وثلاثمائة عام، ومن هنا قامت فكرة المسرحية في ذهنه، وهذه هي نفس الفكرة التي سيطرت على المصريين القدماء " (2) وهو يمزج كل ذلك بما يستجد في واقعه العربي الاسلامي، من قضايا ومشكلات، كقضية الصراع بين الفكرة والواقع، وضرورة الاختيار بينهما، وهكذا " فالصراع النـاشب بين الـوجـود الاسـطوري، والـوجـود التاريخي، لا يسيطر على زمام هذا المسرح، الا لأنه يعبر عن الازمـة التي تسـود العـالم العـربي والاسـلامي في القـرن العشرين " (3) ولك ان تقول ان الحكيم التزم هذا الخط في أغلب أعماله المسرحية الأخرى، كشهرزاد عن ألف ليلة وليلة، وايزيس عن التـاريخ المصري القـديم، والسلطان الحـائـر عن التاريخ الاسلامي الوسيط، فضلا عن الأدب اليوناني كاوديب الملك وبجماليون، وهي كلها تجمع العراقة الاسطورية، الى المعاصرة الفكرية للواقع الجديد، دون ان تجد في ذلك تكلفا أو ارتباكا، وانما هو يصدر صدورا حيويا،

2 ـ الدكتـور عز الـدين اسمـاعيل، قضايا الانسان في الأدب المسرحي المعاصر، ص : 225 . ط.ثانية، دار الفكر العربي 1968 .

3 ـ نفس المصدر، ص : 226 .

ينبجس بالنفس والفكر الى تصورات واسئلة مجنحة، ضاقت بالحيرة زمنا، وبالقيد الجامد أزمانا، فانطلقت ترتاد افقها الرحب، حيث الفن والحق والخير.

أما ثاني الأمرين : فهو الانطلاق من فكرة قبلية، محدّدة غالبا، وتسليطها على وقائع التراث في قممه الشامخة، تطمس جوهره، وتغير من أصوله، وتدفع به إلى زوايا التعطيل والعجز، ليؤدي خدمة معينة، تعزل الناس عن منابع حضارتهم الأولى، وترتدّ بهم الى جاهلية اليبس والقحط والانعزال، متحدية بذلك منطق النص البين، ومفهومه الواضح، وتأويلة القريب، فلا همّ لاصحاب هذه الفكرة القبلية، الا ان يبعثر التراث وتسوّد مآثره العالية، وتحطم اقانيمه الخالدة، حتى يكون اليتم والفراغ، آيتهم في ذلك، ان ما يقدمونه ـ ما هو في الحقيقة ـ الا آراء ونظريات منثورة، هنا وهناك، وان مقص ـ المونتاج ـ أعانهم في هذا السبيل، ولكنه ادعاء لا يتماسك في امتحان سهل أو صعب، ويتحول بالتالي الى إدانة ثابتة، لا تقبل الدحض والدفاع، .فهذا ـ الغفران ـ الذي كشفنا جانبا من جوانبه في الفصل السابق، يزعم صاحبه، أنه اخذه عن أبى العلاء، ومن رسالة الغفران بالذات، وانه اعادة للاثر في ثوب جديد، يتكشف بالمقابلة المتأنّية بين الاثرين، عن خيانة تامة للاثر وصاحبه، وان المعري هذا الجديد، ليس الا شخصا وهميا، قصد به الى

الاحتماء اكثر من أي شيء آخر، وانه استعمل تكأة لاشاعة افكار معينة، هجينة الوسائل والغايات، فلم يكن المعري - في رسالة الغفران - او في غيرها من كتبه ورسائله، بالناكر للالوهية والنبوة، رغم أسئلة الحيرة والشك، التي تندُّ عنه أحيانا، وإذا كنّا نجده في العالم العلوي المتخيل، يعبث ببعض الشعراء، وبصديقه علي ابن القارح، ويضع على ألسنتهم أشعارا وأحاديث، كثيرا ما تعاطوها في عالمهم السفلي، فليس معنى ذلك، أنه ينكر البعث والحساب والانبياء وخالق الناس جميعا، ولامر ما اهتم أبو العلاء بالرد على اسئلة الزندقة والالحاد، التي وجهها اليه ابن القارح، واطال فيها وتوقف، فأبان وأحكم، ونستطيع من خلال ذلك ان نتعرف بوضوح الى سمات التفكير الديني والفلسفي عند ابى العلاء، فاذا كان بعض الناس - منهم مستشرقون معروفون - يجدون في سيرة واشعار الحلاج مثلا، ما يدعو الى التأسي والاعتبار، وربما العطف والمساندة، فان حكيم المعرة، يراه في واد الضلالة يعمه، وان الجهل قد أوقعه في عطب لا شفاء منه " فاما الحسين بن منصور، فليس جهله بالمحصور، واذا كانت الامة ربما عبدت الحجر، فكيف يأمن الحصيف البجر، أراد ان يدير الضلالة على القطب، فانتقل عن تدبير العطب، ولو انصرف الى علاج البرس، ما بقي ذكر عنه في طرس، ولكنها مقادير تغشى الناظر بها سمادير، فكون ابن

آدم حصاة أو صخرة، أجمل به أن يجعل سخرة، والناس الى الباطل سراع، ولهم إلى الفتن إشراع " (4) وهو قول لينّ، بالقياس الى ما وصف به ابن الراوندي، وبابك الخرّمي وابن عبد القدوس، وغلاة الشيعة، وعلي بن محمد صاحب الزنج وابن هانئ الاندلسي الشاعر.

وليس من هدفي هنا في هذا الحديث، ان انتصر للاسلام، في نفس وعقل ابى العلاء، فلذلك مضان كثيرة، يرجع اليها من يشاء، وانما هدفي ان ابينّ ان الصورة التي رُسم بها أبو العلاء في هذه المسرحية الجديدة، ليست من الحقيقة التاريخية في شيء، ولا تمت بأي صلة فكرية او غير فكرية للشاعر الفيلسوف، وانما هي افكار خاصة، تغلغلت في ذهن المدني، وتعلق بها تعلقا شديدا، وردّدها في أعماله السابقة، كالانسان الصفر، وثورة صاحب الحمار وديوان الزنج، وإن الشجاعة خانته أن يواجه الناس بها، وينافح عما يرى ويعتنق، فلجأ الى هذه الطريقة ليتخلص من مسؤولية النقد والمراجعة، ولكنه لم يحكم التخفّي، ولم يفلح في الانزواء، وعجز ان يصهر نحاسه الاصفر بالذهب المصفّى، وبرزت ألوانه الحمراء، تلطخ اللوحة، وتغير الملامح، فتتقزّز منها الأذواق، وتعافها

4 ـ أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص : 476 . تحقيق بنت الشاطئ ط : سابعة.

النفوس، ويقبل الناس مع ذلك، ليتمعنوا في أثره، فاذا هو الظلام يسبح في رؤيا عدمية، يتلمس من الحياة قبحها، ومن الوجود قشرته الظاهرة، ومن الفكر والفن استلابا وإحباطا وإسقاطا.

ولم تكن تلك الأفكار التي تسلطت على ذهن الرجل، وبسطت سوادها على كتاباته، سوى تلك الآراء الشائعة عن الفكر الفوضوي، ومواقفها من المجتمع والدولة والثقافة والحضارة بعامة، ابتداء ببرودون، ومرورا بباكونين، وانتهاء بباندت كوهين، زعيم طلاب حوادث ماي بفرنسا سنة 1968، والفكر الفوضوي كما نعلم، فكر رافض لكل القيم، قديمها وحديثها، هدّام لأبنية المجتمع العليا والسفلى، مقوض لكل الانجازات التي أبدعتها الحضارات الانسانية، فلا جهد يستحق أن يبقى، ولا آداب وفنون وفلسفات وقوانين تربوية وغير تربوية، بصالحة لأن ترعى وتقدر، وإنما جميع ذلك يجب أن يدمر ويسحق، ليحل محله نظام اللاسلطة، فيتحرر فيه الفرد من عقود المجتمع الضاغطة، ويتحرر فيه المجتمع من مواضعات الدولة، وما رسمت من آراء وقوانين، وهي - كما ترى - مراهقة فكرية، أو طفولة يسارية، كما وصفها - لينين - بحق، اذ كيف يتاتى ان يحقق الفرد او الجماعة شيئا كبيرا أو صغيرا، في ظل الرفض المطلق، وبأسلوب الشجب العنيف، وكيف يتيسر للمجتمع

أن يتطور ويتحول الى العدالة الاجتماعية، بغير مؤسسات الدولة، التي كانت دوما أداة فعالة، ابتكرها الانسان منذ فجر الحضارة، ليحفظ أمنه ووجوده أولا، وليحمي بها منجزاته العديدة ثانيا، وليوجّهها صوب أمانيه وتطلعاته، ليحقق بها الواجب والصالح والنافع بعد ذلك، ومعنى هذا أنه اذا كان هدف تلك الآراء، تقويض المجتمع، فلابدّ ان تتحلّل الأسرة، واذا كانت غايتها رفض الحضارة القائمة ـ بما قامت عليه من تراث عتيد ـ فلابد ان تزول قيم الدين والتراث والانسان، واذا كان مبتغاها دكّ عرش الدولة ومبتكراتها، فلابدّ ان تدان كل أعمالها على مدى التاريخ .

غير أنه يحسن بنا، أن نتمهل قليلا، فننظر في بعض أعمال صاحبنا المدني، لنتتبع سير تلك الأفكار العجيبة، وبروزها الواضح في كل عمل قدمه الى حد الآن، ولنبدأ بأثره المسرحي الأول (ثورة صاحب الحمار)، لقد اعتمد في هذه المسرحية على ثورة الخوارج بافريقية، بزعامة أبي يزيد بن كيداد الخارجي الملقب بصاحب الحمار، ضد الدولة الشيعية وصاحبها المنصور بالله الفاطمي، والخوارج كما نعلم تاريخيّا، متديّنون ومتشددون في تدينهم الى حد الزماتة والتحجر، وقد خرجوا عن الامام علي بن ابي طالب، لأنه لم يجسّد نظريتهم في الخلافة، وفي الموقف الذي ينبغي ان يكون متشدّدا من معاوية وأصحابه، وخرجوا على سائر الدول الاسلامية

المتعاقبة، لأنهم يرونها حادت عن جوهر العقيدة الاسلامية، ومذهبهم يقوم في جوهره بالاضافة الى ذلك، على التسوية بين عموم المسلمين، لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وان الامامة والخلافة، لا يتولاها الا الأكفأ والأتقى، بدون شروط أخرى، كأن يكون هاشميا أو قرشيّا أو فاطميا، مما هو معروف لدى الفرق الدينية الأخرى، فماذا فعل المدني بهذه الثورة الخارجية ؟ لقد أدانها بأن أبان فساد قيادتها الممثلة في شخص أبي يزيد، وهو أمر غير تاريخي قطعا ـ والمسرحية تزعم انها شبه تاريخية ـ فصنع لها أهدافا فوضوية، أسقطها إسقاطا، دون مبرر تاريخي أو مجتمعي، يتلاءم وتلك الفترة من حياة المسلمين بافريقية، وجعلها تنادي بالثورة الجنسية، والرّفض المطلق لكل ما هو قائم، وبالاقليمية الضيقة، مما يتناقض أساسا مع الفكر الخارجي، ويخرج به عن الحدود التي رسمها لنفسه :

أبو العرب : نعم اننا مللنا القتال بين المسلمين، جئنا كذلك لنوفق بينك وبين صنهاجة وكتامة، حتى تكونوا أمة واحدة.

أبو يزيد : أرفض الصلح، الحرب دائرة بيننا، أرفض السلم، أعلم أن هذا الشعب ثار من أجل الرفض، وسوف يرفض الدخلاء على أرضه الكريمة أبد الدهر، أعلم ان هذا الشعب ظل محروما طوال القرون، من الخبز والجنس والعلم، انظر إليه، إنه ثار من أجل أن يقول للغزاة : لا،

للمستثمرين لثروته : لا ، للذين يفقرونه : لا ، للذين يموهون عليه : لا ، وها هو اليوم سيد نفسه (5) .

أما زعيم الثورة ، فقد عبث بشخصيته أيما عبث ، وأظهره لنا مغامرا دجالا ، يسعى الى الباطل ، من ذوي الظنون الكاذبة ، لا همّ له إلّا السلطة وممارسة الحكم :

شيخ قبيلة بني كملان : أنا لا أفهم كيف ينقلب الثوري إلى رجعي ، مع مرور الأيام ؟ الحقيقة أنّ الرجل كان يدعي أنه ثوري ، وليس بذاك ، فهو من رهط أولئك الذين لهم نوايا وظنون ، من المغامرين الدجالين ، الذين يختلقون الأباطيل لابتلاع الشعوب ، ويحسب نفسه تنّينا ، بينما هو فأرة نجسة (6) .

فهو من ناحية ، يدين الدولة الفاطمية ، لأنها دخيلة وأجنبية عن تونس ، مما يكشف عن شعوبية حاقدة ، وضيق أفق تاريخي ، وهو من أخرى ، يدين الثورة الخارجية وصاحبها ، لأنها لم تحقق أهدافها ، كما رسمها هو لها ، والحق ان الرجل وأفكاره يرفضان كل شيء ، سواء كان ثورة ، أو غير ثورة ، خارجية كانت أو زنجية أو حلاجية أو علائية أيضا ، كل ما تقدم من محاولات اجتماعية أو سياسية أو فكرية ، فهو

---

5 ـ عز الدين المدني ، صاحب الحمار ، ص : 45 .

6 ـ نفس المصدر : ص : 35 .

باطل الأباطيل، لأن الثورة الحق، لم تقم بعد، والفكر الصحيح، لم يسد بعد، وسنظل ننتظر، حتى تقوم الدولة الموعودة، في عالمه الطوبائي الخرافي، نفس الأسلوب عالج به (ثورة الزنج) وصاحبها على بن محمد، الاطار تاريخي، بعض الاشارات الاجتماعية والجغرافية صحيحة، ولكنه كعادته، يقحم عليها فوضويته وشعوبيته الاقليمية، ويصبّ عليها سخطه ولعناته، لأنها لم ترق الى مستوى الفوضى الكاملة :

عضو سادس : كان خالي زنجيا، شريفا من اشراف قبائل البالوبا، اقتنصوهُ بالشباك، في عميق الأدغال، في إقليم غانة، ثم باعوه في أسواق النخاسة بالبصرة، ثم أعطوه كاسحة في السباخ، يكسح بها الملح، قتله البعوض والجوع والعطش والحرمان من الجنس (7).

ويسدل ستاره المظلم على هذه الثورة، لأنها فقدت مقومات الثورة الحقيقية، كما يقع في وهمه، إذن فالأسرة يجب أن تتحلل، ولترفع راية الجنس، كما نادى بها - باندت كوهين - ولتنفصم أواصر العلاقات الاجتماعية، لتحل محلها أخرى فردية ضيقة، هي ضرورية في تصوره الخيالي، وليذهب المجتمع إلى حيث ينبغي أن يذهب، وليختف التاريخ

---

7 - عز الدين المدني، مسرحية ثورة الزنج، ص : 66.

بحضـارتـه وتـراثـه، لأنـه لا يقدم لنا السر النيّر الذي به نستعين، ولا يقدم لنا البطولة الباهرة، في عالم السواد والجنون !! .

وحينما صور أبا العلاء المعري في " الغفران " جعله بالاضافة إلى ما ذكرنا، فوضويا في أجلى مظاهره، يرفض المجتمع والمدينة والحضارة، لأنها جميعا سجون، وكل سجن لابد أن يحطم :

صاحب العدد : أصبت سادسا : ما المعمار ؟

أبو العلاء : هندسة البنايات والأسوار والسجون

صاحب العدد : أصبت سابعا : ما المدينة ؟

أبو العلاء : سجون، سجون، سجون

صاحب العدد : ثامنا البناية ؟

أبو العلاء : سجـون، سجـون، سجـون، فلنحطم السجون، مهما كانت السجون.

صاحب العدد : ما السجون ؟

أبو العلاء : ظلام، ظلام، ضلال، ظل ظليل، جور، جور، جور (8)

وهذه النظرة السوداء لأبى العلاء، كما صورتها المسرحية، لا تقف عند حدّ، وانما تشمل بحلكتها كل قوانين الأرض

---

8 ـ عز الدين المدني، مسرحية الغفران، ص : 68 .

والسماء، لا شيء في الدنيا يرشد الى الطهر والقداسة، بل هو الفساد المتصل الدائم، الذي يظل متماسكا حتى النهاية :
أبو العلاء : أنت يا مسعد على صواب، فالدنيا ماخور (9) .

فلا ديانات صحت لديه، ولا ألوهية تبيّنت باليقين، ولا أخلاقا بشرية، تنزّهت في المعاملة، كل ما هو قائم وغير قائم، في القديم والحديث، مبني على زيغ ووهم وبطالة، فلتعم الفوضى، وليسلك الناس ما يشاؤون وأنّى يشاؤون، ولا بأس أن يدعى المدني النبوّة، وان يسبغها على رفيقه سمير العيادي، ولا بأس أيضا من أن يخلعها على المخرج المغربي الطيب الصديقي، لا عيب في ذلك ولا تثريب، مادام الكون والوجود والديانات أوهاما وترهات، فلا أحد أسبق من أحد، كل فرد له أن يدعي ما يدعي، ما دامت الفوضى هي القانون، وهي اللغة التي أصبحت تخلب الألباب، وتجلب الاعجاب، وتكسب التقدير، وتقدم صاحبها بين الاقران، وعند من اقامه المجتمع، قواما على حظوظه، ليرعى ويحمي، والمدني هذا، لا يكتفي بالنبوة المرسلة، كسائر الأنبياء العاديين، ولكنه يختار نبوة من نوع خاص، من ذلك النوع الذي حلت فيه روح الاله، فقد ذُكر : " ان ابن ابى

---

9 ـ نفس المصدر، ص : 41 .

العزافر، أبو جعفر محمد بن علي السلمغاني، وصورته صورة الحلاج، ويدعي عنه قوم، أنه إله، وأن الله حل في آدم ثم في شيث، ثم في واحد من الأنبياء والأوصياء والأئمة (10).

فصاحبنا المدني إذن ليس نبيّا فحسب، وانما هو - شيث - من أنبياء التوراة، الذي حل فيه الاله، أما نبي الاسلام، فلا مانع من ان يسخر به، وبدعوته، ولا ضير من أن يصرح بانه قد خدع الجميع، حينما دعاهم الى الصلاة (11).

والـواقع أني اعترض على هذا الفكر، اعتراضا شديدا، وذلك لسببين :

أولهما : هذه الراية السوداء التي يرفعها في أوساطنا، والتي تجد لها شعارا مرسوما على غلاف الكتاب (اللون الأسود، شعار المـذهب الفـوضـوي) ذلـك لأن هذا المذهب الفوضوي، مذهب هدّام، غير علمي، بحدود الفلسفة الماركسية نفسها، وهو نقيض موضـــوعي لكـل ألـوان المـذاهب الاشـتراكية الأخرى، التي طبقت في كثير من البلاد، أو التي مازالت في مستوياتها النظرية، ثم إنه مذهب أخذ يندحر ويتقلص في حلقات صغيرة، جعلت مهمتها المغامرة والعصيان، وركوب الشطط الذي لا يبقي ولا يذر، وبعض المجتمعات الأوروبية

---

10 ـ نفس المصدر، انظر الغلاف، حيث كتب تحت اسم المدني : نبي الله شيث. وانظر ما ذكره أبو العلاء المعري في رسالة الغفران، ص : 38.

11 ـ نفس المصدر، ص : 64.

نفسها التي شهدت ظهوره بها، أخذت تتجاوزه وتلغيه من حسابها، لأنه تكشّف لها، أنه غير قائم على أسس من العلم والمنطق والحضارة، وأن الشباب أنفسهم، طلابا وغير طلاب، أدركوا بالوعي، ومن خلال الممارسة، عمق المتاهة التي يدفعهم اليها، والضباب الكثيف الذي يغلف آراءه، وضياع الجهد الذي يبذلون، في غير ما جدوى ولا نتيجة، وأنه بالجملة مذهب أقرب الى الخطرات الشعرية، والتهويمات التخديرية، منه إلى أي مذهب علمي، أو قريب من أن يكون عمليا قابلا للتطبيق.

وثانيهما: هذا الموقف المنكر للدين بخاصة، وللتراث العربي الاسلامي بعامة، فليس من حق المدني، ولا من حق غيره، أن يعلن سخريته بالعقيدة الاسلامية، وبنبوّة نبيّها، وأن ينكر مصدر ألوهيتها الأوّل، ذلك أن الاسلام كدين وحضارة، لم يقف حائلا قط، بين الانسان وبين سعيه من أجل البناء والعلم والتمدن، إنه بالعكس كان أصح الأديان جملة، حينما شجع على النظر والبحث والعمل، واقتحام الصعاب المجهولة، داخل الطبيعة والمادة والانسان، وإنه لم يتنكر لكل التجارب النظرية الجادة، بل إن الفهم الصحيح لرسالة الاسلام، لا يخرج بغير العدل الاجتماعي، الذي بشّر به، وبغير المساواة التي شرعها للناس كافة، وبغير الحرية الحق، التي ضمنها للجميع، دونما إسراف أو إجحاف، فَهِم هذا

يساريون، لاشك في يساريتهم، وباحثون دارسون، لا شك في علما نيتهم، إن التوحيد لا يناقض العلم، بل يدعمه ويشحذه بالطاقة، التي لا تنفد أبدا، والتصور الاسلامي للرقي الاجتماعي والاخلاقي، لم ينبت في فراغ، ولم يكن نظرة مثالية متعالية، أسقطت إسقاطا، فامتنعت من أن تشغل حيزها في دائرة الحياة، وإنما هي مستمدة من واقع عربي معيّن، صالح لأن يشمل واقعا إنسانيا أكبر وأوسع، لأن " الرؤيا الاسلامية، جاءت بمبدأين أساسيين، هما التوحيد والتكافل الاجتماعي، وكانت هذه الرؤيا متفقة مع البيئة العربية الضيقة، للتغير الفكري والاجتماعي، ومتفقة مع حاجة العالم الواسع إلى رؤية جديدة، في الدول المتحضرة حينذاك، ومن هنا أخذ الاسلام طابعه العالمي، وهو الطابع الذي برزت به الرسالة منذ أن احتملها نبي الاسلام محمد ﷺ، ومنذ أول كلمة جهر بها للتبشير بالاسلام" (12).

إن صاحب هذه المسرحية، له أن يعتنق ما يشاء، وأن يؤمن بما يشاء، ولكن ليس من حقه، أن يدفع في أوجه الناس، رأيا يزري بالدين، وبالمقدسات التي جاء بها، فانه بذلك، يتعدى حدود حريته الفردية، ويستفزّ الناس، ويدفع

---

12 _ أحمد عباس صالح، الاسلام بين اليمين واليسار، ص : 132.

بهم، إلى أن يرفعوا أيديهم معترضين، ناكرين بحزم وقوة، قف والزم حدك، فان مثل هذه الأباطيل، لا نفاق لها في ديارنا، وإن الذين يهمهمون بالمؤازرة، لن يستطيعوا لأحد نفعا، مهما مكّنوا من أبواق صدئة، فان صداها سيذهب حتما في فجاج الرياح.

" الغفران " من هو مؤلفها الحقيقي ؟!!

إن النقد الأدبي، مسؤولية وتبعة، ينهض بها من آمن حقا بأهمية الكلمة، في المجتمع والانسان، وبخطورة دورها في البناء والنهضة، ولم تز دهر حركة نقدية قط، في مجتمع وهو يجنح للزوال، ذلك لان النقد ـ ادبيا أو غير أدبي ـ رمز لصحوة الضمير والعقل، وتألق لملكات النفس الحية، تنبسط أمامها المشاكل والافعال والآراء، فتنفذ فيها، سبرًا واختبارا، تستجلي مواطن القوة، فتثبتها وتؤكدها، وتتحسس مواطن الضعف، فتعزلها وتدفعها، ومن هنا ارتبط النقد بالجرأة، وتعالى ان يكون مدحا أو ذما، أو وظيفا يؤدي دورا له مرسوما، يحتسب لتدعيم هذه العلاقة أو تلك، أو حجرا كبيرا أو صغيرا، يسند جدارا، قواه الهندسية لا قبل لها بحمل هيكل، يتداعى للسقوط باستمرار.

فمنذ أخذت في نقد مسرحية " الغفران " وعدد من الأصوات، يعترض ويحتج، ويلتوي بأساليب المنفعة، التي تبخرت بركاتها العميمة، وبدفاع المحارب، الذي أصابه الأعياء، وأحيط به من كل جانب، وعوض اختصار الطريق علينا جميعا، واغتنام الفرصة لبدء حوار، يمكن أن يؤدي الى نتيجة، ويرسي دعائم في أدب البحث والنقاش، قد تؤدي الى

اشاعة تقاليد ايجابية ، في النقد الأدبي ، مازالت حياتنا الثقافية تشكو من فقدانها ، عوضا من ذلك ، التجأ العديد من الكتاب ، الى اشارات مبهمة ، يبرزونها في ثنايا مقال ، يترجى " عودة الغائب " فيشبعهم نقد أو انصافا ، ويحقق لهم الأمل المفقود ، في كلام يهمس بالتكبير والتسجيد ، وينزلق في ثنايا السطور ، عسلا أبيض ، تهتز له الاعطاف والنفوس ، قبل ان تتحلب له الأفواه والحلوق ، غير أن صنفا آخر من أولئك الكتاب ، اختار الحوار باللغة الفرنسية ، لا نرى له موجبا ، فالمسرحية والفصول الناقدة لها ، كتبت كلها باللغة العربية ، والمنطق العفوي ، يقتضي توحيد مستوى الحوار اللغوي ، لتكون الكلمة أبين ، والدليل أوضح ، والاقضية المطروحة أوعى ، واذا كانت هذه الثنائية اللغوية ، في حياتنا الأدبية وغير الادبية ، لها بعض مبرراتها الاستعمارية في التاريخ التونسي السابق ، وكانت تعد بحق ، لدى المثقفين وغير المثقفين من التونسيين ، أحد الاساليب الاستعمارية الخبيثة ، لعزل الشعب عن تاريخه الحضاري ، وضربه في أبرز مقوماته الشخصية ، وهو اللغة ، فأي مبرر لهذه الثنائية ، بين مثقفين يزعمون لأنفسهم التحرر والتقدم ، والاخلاص في خدمة المجتمع والشعب .

يذكر ابراهيم بن مراد في مجلة حوار الناطقة بالفرنسية (17 ـ 4 ـ 1977) ان المسرحية لا ترفض التراث العربي ،

ولا تنكر رسالة الغفران للمعري، وان أبا العلاء أورد في رسالته، ما ينمّ عن سخرية وشك، وان المدني لم يتجاوز ذلك في مسرحيته، ويقول علي بلعربى، في جريدة ـ لا بريس ـ الناطقة بالفرنسية أيضا (6 ـ 5 ـ 1977) ان منطلقاتي النقدية، لا تتلاءم وروح العصر، وانها قديمة رجعية، وأورد كلاما آخر، مجد فيه المسرحية وصاحبها، واعتبره عبقريا عظيما، يتقدم توفيق الحكيم وطه حسين ونجيبْ محفوظ !!

غير ان واحدا من الاثنين، لم يناقش جوهر القضية الذي أثارته المسرحية، واعتبرته أنا المحور الأساسي الذي بنيت عليه مواقفها، وهو الدين والتراث العربي بعامة، ان المسرحية لم ترفض الدين والتراث فقط، وانما تجاوزت ذلك الى الهزء والسخرية بهما، واعتبارهما قيما يجب أن تزول، وترهات يجب أن تلغى، وانه آن الأوان ليتحلل الفرد من قناعاته الثابتة، والاسرة من روابطها، التي ظلت بها متماسكة طيلة قرون الحضارة، كان لابد ان يكون هذا هو محور النقاش والحوار، ولكن الكاتبين انصرفا الى أمور هامشية، مللنا سماعها وتكرارها، بمناسبة وغير مناسبة، فالذين يجدّفون مجددون، والذين يحفظون رجعيون سلفيون، وأنا لا أحب ان أتوقف، لاناقش وأجادل، فان لحظة النقاش قد ازف ترحلها، وان الذين تحدثوا فاطالوا، وناقشوا فعربدوا، مدافعين عن المسرحية، ومعترضين على كتاباتي، سيجدون أنفسهم قد اسقط في ايديهم، بعد ان يقرأوا هذا الحديث.

ذلك ان المسرحية، لم تكن صورة جديدة لرسالة الغفران، أو نظرة ثورية للتراث العربي، وانما هي سرقة موصوفة، وأقباس من هنا وهناك، ليس غير، وان صاحبها لم يتسلح بعلم جديد أو قديم، أو برؤية عصرية أو تاريخية، حينما أقبل على عمله ذاك، وانما هو مدّ يده بدون حذر، ليأخذ الكثير من كتب ظنها مجهولة، ثم يسبغ عليها لونا مسرحيا هشا، يبث بين ثناياه، جملا وفقرا ورسوما، كانت النشاز الذي أثار الجلبة والاستنكار.

فقد كنت ببعض مكتباتنا العتيقة، أتصفح ما تمتد اليه يدي، من كتب ومجلات، اذ وقعت على هذا العنوان " دقائق الأخبار الكبير في ذكر الجنة والنار " للامام عبد الرحيم بن احمد القاضي، فأخذت أعبر ببصري على عناوين فصوله، وكنت ابتسم بين الحين والحين، لما أعلم من مبالغات فيه، ليست من الدين في شيء، وانما هي سمعيات اسرائيلية ونصرانية، ندد بها الائمة دائما، تعاظم أمرها في عصور الظلام بالتدقيق، ونشأت في أذهان العامة حولها أساطير، يصعب ان تزول، ولكن شيئا ما، يجعلني أتمهل وأتوقف، فان صورا معينة تقفز الى ذهني، وأخبارا خاصة تتواثب أمامي، وأسماء محددة، يرن جرسها في أذني، وكان لابد من جلسة عمل ومقارنة، وكانت المفاجأة التي اذهلتني حقا، ولكن سريعا ما تبدد أثرها في نفسي، لعلمي بها يتردد في قلب الواقع

الأدبي والثقافي التونسي، وارتباط حركته بالعلاقات الشخصية، التي ترفع من تشاء، وتضع من تشاء، ولكي أمكن القارئ الكريم، من متابعة هذه القضية بكل دقة، أضع بين يديه هذه الحقائق :

أولا : ان صاحب المسرحية، لم يعتمد رسالة الغفران لابى العلاء، في قليل أو كثير، وان ما زعمه في المقدمة، من أنه جدد المعري، وبعثه شابا قويا، يرفض ويتحدى، لم يكن الا محض تمويه ومغالطة.

ثانيا : انه اعتمد اعتمادا كليا، على كتاب " دقائق الاخبار الكبير في ذكر الجنة والنار " للمؤلف المذكور، وان جميع الاسماء ـ سماها هو شخصيات ـ مأخوذة حرفيا، من ذلك الكتاب، وهي : القنديل ـ الطاووس ـ الشجرة ـ المرآة ـ القلم ـ وكذلك : صاحب الكلام ـ صاحب المفتاح ـ صاحب العدد ـ صاحب المذهب، وان كان غير الجزء الثاني منها، إذ وردت في الأصل : صاحب الوحي ـ صاحب الصور. . الخ.

وكذلك عدد أبواب السماء السبع، التي يجتازها أبطال المسرحية، واحدا اثر واحد، واسم كل باب منها، وما كتب من كلام فوقها، (وان كان صاحب المسرحية غير شيئا منها، فيجعلها مثلا هكذا : باب مكتوب عليه ممنوع الضحك، عوض باب الضحى).

ثالثا : فضلا عن الاسماء، والجمل المقتلعة من هنا وهناك، والألغاز الدينية، التي استحوذ عليها من كتاب " دقائق الاخبار " فقد سطا سطوا منكرا على صفحات كاملة، حوّلها في مسرحيته الى (مواقف)، دون ان يشير الى ذلك أدنى اشارة، واقتصر عمله في الأغلب، على احلال كلمة محل أخرى، أو اضافة جملة اعتراضية، ذات نشاز واثارة، أو تلخيص خبر، لينحرف بهدفه في النهاية، عن مدلوله الأصلي، واليك - قارئي العزيز - البيان مفصلا، يعتمد المقارنة بين النصين، النص الأصلي، والنص المنحول، مع الاشارة الى ارقام الصفحات، في كل من هذا وذاك.

1 ـ الغفران

تأليف عز الدين المدني

1 ـ الموقف الثاني :

القلم : جاء في الخبر الصحيح ، ان الله تعالى خلق شجرة ، لها أربعة أغصان ، فسماها شجرة اليقين .

الشجرة : ثم خلق نور محمد ﴿ﷺ﴾ في حجاب ، من درة بيضاء كمثل الطاووس .

الطاووس : فوضعني على تلك الشجرة المباركة فسبحت عليها مقدار سبعين ألف سنة والسنة كالشهر ، والشهر كالأسبوع ، والأسبوع كاليوم ، واليوم كالساعة ، والساعة كالدهر ثم خلق مرآة الحياة .

المرآة : ثم خلقني عز وجل ، باطني في ظاهري ، وظاهري في باطني ، ووضعني باستقبال الطاووس .

الطاووس : فلما نظرت في مرآة الحياة ، رأيت صورتي أجمل صورة ، ومنظري أحسن منظر ، وهيئتي أزهى هيئة فخجلت ، ثم خجلت ، وأخيرا خجلت من الله تعالى ، فانصببت عرقا ، فقطرت مني ست قطرات ، كل قطرة في حجم بحار الخليقة ، ثم قطرت مني قطرة واحدة وحيدة .

الشجرة : فخلق الله من القطرة الاولى أمة محمد ﴿ﷺ﴾، ومن الثانية أبا بكر، ومن الثالثة عمر، ومن الرابعة عثمان، ومن الخامسة عليا، رضي الله عنهم أجمعين، جميعهم تيجان من النـور، ومن السادسة الانعام واللبن والعسل المصفى، ومائدة المن والسلوى، ومن القطرة الواحدة الوحيدة، القمح والدقيق والخبز.

مسرحية الغفران ص : 24 ـ 65.

الموقف الثالث :

الـطاووس : ثم نظر الله تعـالى الى ذلك النور المحمدي، فخلق ارواح الأنبياء من عرق محمد عليه السلام.

القنديل : ثم خلقني الله من العقيق الأحمر، يرى ظاهري من باطني.

القنديل : ثم خلق صورة محمد ﴿ﷺ﴾، كصورته في الدنيا، ثم وضعها فيّ.

مسرحية الغفران ص : 26

القلـم : ثم أمـر الله تعالى الخلق بالصلاة على صورة احمد ومحمد ﴿ﷺ﴾.

أبجد : فالقيام للصلاة كمثل الالفـ.

الشجرة : والركوع كالحاء .
الطاووس : والسجود كالميم .
القنديل : والقعود كالدال .

ـ الغفران ـ ص : 27 .

القنديل : وخلق الله الخلق على صورة اسم محمد ﴿ﷺ﴾ .
القنديل : فالرأس مدور.
ابجد : كالميم الأولى .
القلم : واليدان .
ابجد : كالحاء .
القلم : والبطن .
ابجد : كالميم الثانية .
القلم : والرجلان كالدّال .

ـ الغفران ـ ص : 28 .

الموقف الرابع :
المرآة : ثم امر الله تعالى ان تنظر الأرواح الى نفسها
القلم : فمن رأى نفسه في المرآة ؟

المرآة : صار صاحب رأي ومذهب وعقيدة
القلم : ومن رأى ابجده وحطيه وهوزه وسعفصه ؟
المرآة : صار كسيدنا صاحب الكلام
القلم : ومن رأى عينيه ولسانه وشفتيه وأذنيه وحاجبيه وخديه ؟
المرآة : صار كهذا الذي يصنع المفاتيح
القلم : ومن رأى دفاتره وأقلامه ؟
المرآة : صار كسيدنا صاحب العدد

ـ الغفران ـ
ص : 30

الموقف الثامن :
أبو العلاء : أين قلمي ، حتى اجيب عن السؤال ؟
ساعد : لسانك هو قلمك
أبو العلاء : أين دواتي ومدادي ؟
مسعد : فمك هو دواتك ، ريقك هو مدادك
أبو العلاء : أين ادواتي وسجلاتي ؟
ساعد : هي خلفك تخفيها ، هي عن شمالك تتبرأ منها ، هي حول عنقك تشدك الى الذنوب

أبو العلاء : لا أخفي كتبي ، ولا أتبرأ منها، فلا أحملها على الخطايا، ولا هي تجرني الى الذنوب، وهي ساطعة كشمس الظهيرة في أم السماء.

ـ الغفران ـ ص : 41.

الموقف الثالث عشر :

ساعد : هي كالجسر العظيم، قد بني على النيران الحامية

مسعد : وعلى الجسر قامت سبع قناطر من الفولاذ

الطاووس : منها مسيرة ثلاثة آلاف سنة، الف منها صعود، والف منها استواء، والف منها هبوط

الشجرة : والطريق اخوف من الأدغال

القنديل : والطريق أظلم من الليل

المرآة : والطريق املس من المرآة

القلم : والطريق أدق من السطر

ابجد : والطريق أغرب من حروف غير معجمة

الباز : والطريق احد من مخالب الباز

ـ الغفران ـ ص : 55

2 ـ دقائق الاخبار الكبير في ذكر الجنة والنار

تأليف الامام عبد الرحيم القاضي

جاء في الخبر، ان الله تعالى خلق شجرة، لها أربعة أغصان فسماها شجرة اليقين، ثم خلق نور محمد، في حجاب من درة بيضاء، كمثل الطاووس، ووضعه على تلك الشجرة، فسبح عليها مقدار سبعين ألف سنة، ثم خلق مرآة الحياة، فوضعت باستقبالـه، فلما نظر الطاووس فيها رأى صورته أحسن صورة، وأزين هيئة، فاستحى من الله فعرق، فقطر منه ست قطرات، فخلق الله تعالى من القطرة الأولى، أبا بكر، رضي الله عنه، ومن القطرة الثانية، عمر رضي الله عنه، ومن القطرة الثالثة، عثمان رضي الله عنه، ومن القطرة الرابعة، عليا رضي الله عنه، ومن القطرة الخامسة، الورد، ومن القطرة السادسة الأرز.

دقائق الاخبار ص : 2 .

ثم نظر الله إلى ذلك النور، فخلق منه أرواحهم، يعني خلق أرواح الأنبياء، من عرق محمد.

ثم خلق قنديلا من العقيق الأحمر، يرى ظاهره من باطنه.

ثم خلق صورة محمد ﷺ، كصورته في الدنيا، وضعها في هذا القنديل.

كتاب دقائق الأخبار ص : 3 .

ان الله تعالى أمر الخلق بالصلاة على صورة احمد ومحمّد . فالقيام كمثل الالف ، والركوع كالحاء والسجود كالميم ، والقعود كالدال .

دقائق الاخبار ص : 3 .

وخلق الله الخلق على صورة اسم محمد ﴿ﷺ﴾ ، فالرأس مدور، كالميم الأولى ، واليدان كالحاء ، والبطن كالميم الثانية ، والرجلان كالدال .

ـ دقائق الاخبار ـ ص : 3 .

ثم أمر الله تعالى الأرواح ، لينظروا اليها ، فمنهم من رأى رأسه ، فصار خليفة ، وسلطانا بين الخلائق ، ومنهم من رأى جبهته فصار أميرا عادلا ، ومنهم من رأى عينيه فصار مستمعا ومقبلا ، ومنهم من رأى خديه فصار محسنا وعاقلا ، ومنهم من رأى شفتيه فصار وزيرا ، ومنهم من رأى انفه فصار حكيما .

دقائق الاخبار ص : 17 .

اين قلمـــي ، وأين مدادي ودواتي ، فيقــول له ريقــك مدادك ، وقلمك اصبعك فاذا ابلغ سيئة استحيا منه ، فيقول له يا خاطئ ، لم تستح من خالقك ، حيث عملتها في الدنيا ، وتستحي مني الآن .

ـ دقائق الأخبار ـ ص : 16 ـ

ان الله تعالى ، خلق على النار جسرا وهو الصراط ، على متن جهنم مدحضة مزلقة ، عليه سبع قناطر ، كل قنطرة منها مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، الف منها صعود ، والف منها استواء ، والف منهـا هبـوط ، أدق من الشعـرة ، وأحد من السيف ، واظلم من الليل .

ـ دقائق الأخبار ـ ص : 32

ان العمـل الأدبي والفني ، لم يكن قط سرقة وسطوا ، ولم يكن أبدا اقتباسا وتشويها ، وانما هو المعاناة الحق ، تنتهي إلى خلق فني متفرد ، له خصوصيته المتميزة ، ونكهته التي تختلف عما سواها ، وان العمل الذي أقدم عليه صاحب "الغفران"

لم يكن فضيحة فقط، تكتب بمداد أسود في تاريخ الادعاء والغرور والزيف، وانما هو ايضا، فضيحة كاشفة لا تغتفر، لمن كنا نجدهم في كل وقت، يتسترون عليه بكل وسيلة، ويقفون الى جانبه باستمرار.

ولكن الحقيقة آن لها ان تظهر، ويسطع نورها فيبهر المرجفين، دعاة الباطل والزيغ، وأصحاب العمل المدسوس، الذي يستهدف التشكيك في قيم الدين والتراث والحضارة، ومنذ الآن لن يكون هناك مجال، لاي حركة فكرية أو أدبية، لا تعلن عن اهدافها بكل وضوح، ولا تقدم البينات التي تجعل أعمالها مشروعة، فان اليقظة عمت بين القارئين والكاتبين، ولم يعد من السهل أن يستدرجوا الى الخديعة، باسم التقدمية والتجديد، أو أي شعارات اخرى براقة، ذهبت لها ضحايا كثيرة، في كل أجيالنا المتعاقبة.

عند هذا الحد، لا أدري كيف سيواجه انصار المسرحية المسروقة، هذا الموقف الجديد ؟ وكيف يجدون المبررات التي يمكن لها ان تناقش أدلة واضحة، لا شك فيها ولا اختلاف ؟

النقد الأدبي ليس متاهة بغير حدود

روى لي مثقف طلعة، انه قرأ أو سمع، ان رجلا اجتاح بستانا، وأخذ يجمع عيون قطافه، وأطايبب ثمره، متعجلا متخفيا، يريد أن يولي قبل عودة السعي والحركة، ولكن الحارس نجم أمامه أو خلفه فجأة، وأخذ بمخانقه، يعنفه ويشتد عليه، ثم أراد أن يسأله ليعلم خبيئته، قبل ان يقضي في أمره بما هو قاض، فقال : كيف تدفع عن نفسك ما أرى وألمس وأسمع وأشمّ، وكيف تبرر الفعل المنكر الذي اتيت ؟

فقال الرجل اللص : ما أنا بسارق، ولكن عاصف الريح، حملني فألقى بي داخل السور كما ترى، قال الحارس : ولكني أرى سلالا معبأة، وثمرا آخر تتحزم به في ثيابك، فقال : ما هذا بسرق، ولا الى ذلك كنت أقصد، وانما شدة الريح دحرجتني، فكانت ترفعني وتضعني، كالورقة الجافة، وكنت أحاول ان أتماسك، فاتشبث بما يعترضني، واتعلق بما تصل اليه يدي، متجمعا ومتفرقا، وهكذا تطايرت الثمار، فامتلأت بها السلال !!

نحن نتلقى دائما هذه النادرة وامثالها، بما ينبغي لها من سرور يعم المجلس، ومن قهقهات عالية لدى البعض، ولم يتفق لاحد ان تلقاها بغير ذلك، فعنصر المفارقة الذي أدى اليه الارباك، واضح بين، يدركه الصغار في مراحل نشأتهم

الأولى، فضلا عن الكبار، بل ربما يتساوى الوضع والحال، لدى الاسوياء وغير الاسوياء، الا من اشتدت به العلة، وتأزمت به النفس، فخرج عن الحدود الأولية، والمبادئ الضرورية، لكل ادراك عقلي ونفسي.

ولكن يظهر أن شيئا ما، قد طرأ على بعض النفوس والعقول، فسلب مزاياها، واستل رحيقها، حتى غدت كتل أعصاب جامحة، لا ينتظم لها فعل او قول، وانما هي الحركة العشواء، والخبط في المتاهات، التي انطمست معالمها، والكلام الذي انفرطت عقوده، فرسب في قيعان البحيرات المرة، وضاع في سباخ ملح البصرة، وأخطأ طريقه دائما، الى الآذان الصاخية الى القول فتتبع أحسنه، فكان رغاء، ان وجدت فيه قلة القلة، نشازا وازعاجا، فهو عند الكثرة الكاثرة، من أصحاب الثقافة الجادة، وأهل الطبع السليم، كلام هوائي، لا ينبغي ان يحتفل به، الا كما يحتفل بازالة غبار خريفي، غير ذي مطر.

وآية ذلك، انك تتحدث اليهم متأنيا، بان مسرحية " الغفران " ذات منطلقات خاطئة، ولها دعوة تضليلية جاحدة، وأسلوب معوجّ في التعامل مع التراث، فيصخبون وينفعلون بكلام، يحاولون به المغالطة فلا يستطيعون، وتكشف لهم بسافر الحجة، المصدر الذي اجتثت منه المسرحية، فينزعجون وتهمد حركتهم مدة، ثم تعلو أصواتهم

مضطربة متنافرة، يرومون درء الفضيحة فلا ينجحون، وسرّ هذا البلاء، ومصدر هذا الانغلاق العنيد، ان أصحابه تواصوا بالباطل، وتوطأوا على السيئة، يريدون محو بصماتها الثابتة، حماية للصاحب الرفيق، وسنادا للصدع الذي انهارت به جدران التجديد المزعوم، وبلاغا كاذبا، عن طليعة ارتكست في الوهاد، ولا بأس من ترديد الأثر ظاهريًا " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " (1) وهم مع ذلك يدّعون الكتابة الأدبية، والنقد الأدبي، والتجديد المسرحي، وما شئت من فنون الأدب، قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها على السواء، غير مدركين ان التعصب هو اقتل للفكر والنقد والأدب، من أي آفة أخرى، وان الحركات الفكرية والمدارس الأدبية، والتجمعات الثقافية عموما، لا تلتئم بالعواطف والمصالح والاهواء، وانما هي تنشأ وتنمو وتزدهر، في ظلال المبادئ الواضحة، وفي نطاق القدرة الخالقة، والسلائق الطموحة المبدعة، والمدار في كل الأحوال، موضوعية العلاقة، بين الجماعة والمدرسة الواحدة، التي يحكمها فكر حرّ غير جبان، ويستمر بها انتاج أدبي فنّي، تتوفّر فيه خصال الابتكار الحق، الذي ارتفع عن الاسفاف، وخلا من التلفيق والدجل

1 ـ ورد في الحديث الشريف « ولينصر الرجل أخاه، ظالما او مظلوما، قيل يا رسول الله، انصره مظلوما، فكيف انصره ظالما، قال بنهيك اياه ». رواه البخاري ومسلم.

والخداع، ومن ثم فلا بد ان تنشأ نتيجة لذلك، علاقة نقدية بين أفراد المدرسة أو الجماعة الواحدة، تراجع المواقف باستمرار، وتقيّم ما هو ملتصق بها، لتصحّ النسبة وتشرف العلاقة، ويكمل بها الانتفاع، هكذا نهض الأدب والفكر والفن، في ظلال المدارس بأوروبا، وغير أوروبا، ولم نعلم قط في تواريخ الأدب، ان جماعة ما، أقامت علاقتها بين الأفراد، على غير هذا الوجه.

إزاء ذلك، صار لزاما علينا، ان نتصدى لهذه الظاهرة الخطيرة في حياتنا الثقافية والأدبية، وان نبين بجلاء عقم تلك المحاولات، وجنايتها المتواصلة على الثقافة والأدب بتونس، من خلال تلك الأساليب الغريبة، التي تتحرك بها هذه الكتلة الأدبية أو تلك، ومن خلال محاولة فرض اتجاه أدبي أو فكري، لا يستجيب لابسط القواعد الأدبية والفكرية، بداهة منطق، وعفو خاطر، وقد نعجب من سعايتهم في النوادي والمؤسسات الثقافية، وأجهزة الاعلام المختلفة، واستغلالهم فرص العلائق الشخصية، لخدمة اغراض، ليست لوجه الحق الأدبي، وانما لتغطية موقف لبعضهم، قد اهتز لدى القارئين، أو للمسّ بعمل جاد، يأخذ طريقه الى منزلته الرفيعة، ولهم في ذلك فنون وعجائب، وخطط بعيدة، وأخرى قريبة، يقضون في رسمها الليالي والأيام، واهمين بحلم مستقبلي، يتغير به الناس غير الناس، والأرض غير الأرض والتاريخ غير التاريخ.

في هذا النطاق، ينبغي ان توضع حملتهم الأخيرة، حول مسرحية " الغفران " وفي هذا النطاق أيضا، ينبغي أن تفسر ردود بعضهم الصاخبة، التي تحمل مع ذلك، فزعا ويأسا لا يخفيان، وبذلك أيضا، يفسر صمت المعني بالأمر، صاحب المسرحية " عز الدين المدني "، وان كنت أرى أن سكوته رضى، وصمته اذعان وتسليم، لأنه لا يستقيم ان نقبل ردودا بوجهات نظرة متناقضة، حول عمل، صاحبه يدرج بين احياء يرزقون.

ومع ذلك فقد اقبلت - بملال - على هاتيك الردود، اتفحصها لا تبين منطقها النقدي، واسلوب تحليلها للموقف، ومستوى موضوعيتها في الحوار، فالفيتها جميعا، تاتلف في خط واحد، هو محاولة تغيير مجرى الحديث، من موضوع محدد، بسطته في الفصول السابقة بكل وضوح، الى مواضيع أخرى، صحيح أني ناقشت جوهر المسرحية كفكر لا يتلاءم مع مقومات الشعب الحضارية، ولا ينهض على ركائز، لها حسابها في منطق التاريخ والتقدم، ولكني ابنت في الأخير، ان المسرحية ليست من تأليف صاحبها، اذا فهمنا التأليف على الوجه المتعارف، قديما وحديثا، عند نقاد الشرق والغرب، كلاسيكيين أو واقعيين أو طليعيين، على حد سواء، فبداهة الحوار، تقتضي الحوار حول موضوع السرقة، والابانة بهدوء، عما اذا كان في الأمر لبسا، وان السرقة الأدبية جائزة،

مرغوب فيها، في عرف دولة الأدب الطليعية الجديدة !!،
جوهر الامر اذن، ليس هو التقدمية والرجعية في الأدب والمجتمع، وانما هو النظر في هذه المسرحية المزعومة، من جهة انها عمل ملفق تلفيقا، اعتمد فيها صاحبها، اعتمادا أساسيا على عمل آخر، له صاحب معين، هو الامام عبد الرحيم بن احمد القاضي.

ورغم ان بعض الردود، حاولت ان تبرر السرقة، وان تأتي ببعض الملاحظات الجزئية لانقاذ الموقف، وكان التهافت فيها باديا، والتناقض واضحا، فاني مع ذلك، سأتوقف عندها زمنا، لا لأجعل الموضوع لجاجا وخصاما، كما يطمحون، وانما لاضع أمام القارئ الكريم مزيدا من التفصيل، لعله يفيد في التعرف على اصل القضية، والالمام بكل اطرافها القريبة والبعيدة، وقبل ذلك اذكر القارئ، والذين كتبوا أيضا، أن ساحتنا الثقافية، عرفت سابقة مماثلة لعز الدين المدني، ففي أواسط الستينات نشرت جريرة العمل الثقافية مقالا، حول ادب " جيمس جويس " بقلم المدني، فيه طرح لمفهوم الحداثة في أدب القصة، وهزّ بعض الناس رؤوسهم طربا واعجابا، لكن هزتهم تلك، تجمدت عندما أبان لهم أحد أدبائنا الشبان، ابانة قاطعة، ان المقال منقول برمته حرفيا، عن الكاتب الفرنسي " ميشال بوتور " وانطوى الرجل على نفسه مدة، ثم طلع علينا طلوعا جديدا، يحفه

التهليل والجلبة، مما مكّن له من ان يغرس أوصالا جديدة، ومن ان يمدّ عروقا في بحر ثقافتنا الميّت، ولكنه ما عتّم ان عاد الى سيرته الأولى.

فماذا قال " الرفاق " ؟

يتساءل احمد الحاذق العرف، هل " ان المدني بالغباء والسذاجة، حتى يسطو على كتاب أصفر، يعرفه الخاصة والعامة ؟ "، مضيفا ان المدني اشار الى " عن القدامى غفر الله لهم "، ثم يتساءل : " كيف يفسر اشتمال الكتاب المذكور (دقائق الاخبار) على نصين، يلتقيان في نفس الاخبار، وحتى كيفية رواية هذه الاخبار، ايهما هو المؤلف الحقيقي ؟ " (1)

نلاحظ أولا : ان هذا الكتاب الأصفر، لم يكن شائعا معروفا لدى المتخصصين، فضلا عن غيرهم، ولو كان معروفا حقا، لوقعت المقارنة بينه وبين مسرحية الغفران منذ البداية، اما ان اشارة " عن القدامى " تقصد الكتاب بالذات، فهو كلام لا محصل له، لان القدماء كثيرون، وآثارهم لا حصر لها، ثم ان صاحب المسرحية ذكر العبارة كالآتي : " عن أبي

انظر مقالة "المدني ليس ساذجا ليسطو على كتاب اصفر"، جريدة الصباح التونسي، 17 ـ 6 ـ 1977 ـ وانظر مقالين له بنفس الجريدة، الأول بتاريخ 10 ـ 6 ـ 1977. والثاني بتاريخ 17 ـ 6 ـ 1977.

العلاء احمد بن سليمان التنوخي المعري، وغيره من القدامى، غفـر الله لهم اجمعين " فهو هنا يؤكد على ابي العلاء، وان مسرحيتـه تعتمـد أسـاسـا على رسـالـة الغفران، أما كلمة " غيره " فلم تكن الا دخانا، يخدع به الابصار لا غير، أما ان دقائق الاخبار، يشتمل على نصين، حول موضوع واحد، وايهما هو المؤلف الحقيقي، فذلك امر محير حقا، لدى الرفاق، هؤلاء الذين يتهافتون على الكتابة، ومراجعة التراث ورفضه، تصـور أيهـا القـارئ، ان الجـماعـة لا يفـرقون بين الكتاب وهامشه، رغم ان ذلك مذكور على الغلاف.

ثم يحس الكاتب، كأن ما قدمه لا يقنع احدا، فيذهب الى ان المـدني قام بمسرحـة كتـاب دقـائق الاخبـار، وهي " ضرب من اعـادة الكتـابة، تنطلق من نصوص جاهزة، لتعـطيهـا ابعـادا جديدة "، غير ان المتـأمـل في مسرحية الغفران، لا يجدها عملا ممسرحا، كما هو متعارف عند نقاد المسرح وكتـابه، ضرورة ان المسرحة عمل ثانوي في الكتابة المسرحية، وان أغلب الذين ينهضون بذلك هم المخرجون، حينما يعد لون النصوص، حذفا واضافة، ليتيسّر لهم تقديمها مسرحيا أو سينمائيا، وقد شاعت في السنوات الأخيرة، بمصر خاصـة هذه الـظاهرة، فقدمت أغلب أعمال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وطه حسين وغيرهم، على المسرح والتليفيزيون والسينما، ولم نقرأ أو نسمع، ان الذين قاموا بتلك المسرحة،

هم مؤلفون أو عباقرة مجددون ـ كما ادعى المدني واصحابه ـ وانما هي أعمال يقومون بها تلقائيا، تدخل في صميم عملهم المعتاد، وهدفهم ان يقربوا تلك الآثار الجيدة الى الجمهور، وان ينشطوا حركة المسرح بالوان جديدة، في زمن اشتدت فيه ازمة الخلق المسرحي والفني، ثم لماذا ـ لو صح ذلك ـ يخفي علينا المدني الكتاب الذي مسرحه، هذا من جهة، ومن أخرى، فان هذا العمل الذي قدمه المدني، لا يمكن أن يعد " اعادة كتابة " لانه يتنافى وأساليب هذا الفن، فنحن نذكر جيدا، ان أعمالا كثيرة لا حصر لها، أعيدت كتابتها، وشاهدها الناس وقرأها القراء، وأعجبوا بها أيما اعجاب، وان اعادة كتابتها لم تزدها الاثراء وقوة، كاوديب الملك، وانطيغون واليكترا، وشهرزاد وفيدرا، ولكن الفرق ان هؤلاء الذين استوحوا التراث أو " اعادوا كتابته " كما يسمي البعض ذلك، لم يستعيروا ولو سطرا واحدا من الكتب التي جددوها، ومن النصوص التي انطلقوا منها، وان ابقوا على الخطوط العامة للنصوص، وعلى الشخصيات التي تقمّصت الأحداث والمواقف، لو ان المدني انطلق من نص دقائق الأخبار، واعاد صياغته باسلوبه الخاص، وضمّنه قضايا معاصرة أو غير معاصرة، لقلنا انه استوحى نصا تراثيا، أو اعاد كتابته، اما ان ينطلق من نص غير معلوم (لانه لم يشر اليه) ويسلخ اجزاء كثيرة منه، بدقة فذة، ويعقد لنا مقدمة، يشرح فيها

اسلوب تجديده لابي العلاء المعري ، وان طريقته الجديدة تزرأ بطرق الآخـــرين، من أمثـــال العقـاد وطـه حسـين وبنت الشاطئ ، فذلك هو التناقض الغريب، الذي لا تفسير له الا ان صاحبنا يريد خداعنا، وتشويه الصورة لكل عمل أصيل خلاق.

وليعلم الرفاق (2) ان النقد الأدبي، قد حدد كل هذه الابعـاد، ورسم قواعـدهـا، وابـان لها شواهدها في الشعر والنثـر، وان هنـاك بابـا كبـيرا عنـد النقاد والعرب، سمّوه " السرقات الأدبية " ، وانهم لم يتركوا فيه كبيرة أو صغيرة الا احصوها.

---

2 ـ نشرت ردود اخرى، كتبها بصفة خاصة، الناصر بن الشيخ، تأييدا للمدني، ونشرتها جريدة الصباح بالتواريخ التالية :

ـ 25 ـ 5 ـ 1977.

ـ 27 ـ 5 ـ 1977،

28 ـ 5 1977.

هذا فضلا عن ردود اخرى، نشرت بالفرنسية في جريدة "لابريس" ومجلة "حوار" الناطقتين بالفرنسية والصادرتين بتونس.

أدب المعراج

نقلت إلينا الأنباء منذ أمد، أن عددا من المؤسسات الرسمية، في كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية، تعكف الآن بجدّ، على دراسة امكانية وجود طاقة نفسية خاصة - بشكل علمي مؤكد - لدى بعض الأفراد، بموجبها يستطيعون التأثير في غيرهم من الناس، رغم ما يفصل بينهم من مسافات، وان هذه الأبحاث اذا وفقت، وتلك التجارب اذا نجحت، فانها ستحقق نتائج، قد لا يستطيع العمل الآلي ان يحققها، على الوجه المطلوب الذي يريدونه، وقد سبق هذه الانباء الغريبة، بفترة طويلة، ظهور سيل كثيف من الكتب والدراسات، حول العقل الانساني وقدراته الخفية، ومشاعره الباطنة، وما تحتوي عليه من خوارق، يذهل لها المنطق المتعارف، وما ارساه من خضوع المعلول للعلة، وارتباط السبب بالنتيجة، بل ان - كولن ويلسون - الكاتب الانجليزي المعروف، وهو احد أقطاب الوجودية المعاصرة، اصدر كتابا عن " القوة الخفية " و " القوى الغريبة " التي تسكن النفس الانسانية، وانها في احيان كثيرة، لا تخضع لنظام معروف، أو سلوك تواضع عليه الناس.

ومهما تكن الدوافع التي حركت بعض المؤسسات والأقلام، لاثارة هذا الموضوع، وابرازه في صورة الحدث الخطير، الذي سيغير من واقع الحياة، ويبطل من تأثير العقل المنطقي في تسيير شؤونها، وما يترتب على ذلك من اندفاع بعض الناس، وراء الوهم والخرافة، وتجاوز منطق حضاري، اجهد الانسان نفسه كثيرا، حتى بلغ أوجه في العصر الحالي، فان هذا الموضوع مع ذلك، لجدير بكل تدبر وتامل، لسبر كنه هذا الانسان العجيب، الذي امتزجت فيه الملكات المتغايرة، وتسلطت عليه قواها المتجاذبة، فظل يخضع لتأثيرها، عبر تاريخه الطويل، صعودا وهبوطا، يبني ويشيد مرة، ويهدم ويدمر أخرى، يعقد له سببا بهذه الدنيا الكنود، حسب أوضاع دبّرها تدبيرا، أو حسب قيم صارمة انتهجها انتهاجا، فتسير بها حياته، مضطربة متقلبة، يسعد بها حينا، ويشقى بها حينا آخر، لا هو عنها راض ولا هو بمنهجه قانع، فينأى عنها، ويتجاوز خطها المرسوم، ويركب جناح خياله، الى عوالم أخرى، تضيع فيها مسافات مكانها، ووحدات زمانها، فيحقق فيها ما عجز عن تحقيقه في عالمه الارضي، ويرسم صورا اخاذة، تزداد بها حياته تكاملا، ووجوده بها خصبا، وهو بكل ذلك يضيف جديدا الى عمله في دنياه، التي ضاق بها كثيرا، ويعبّد لاجياله المتعاقبة، سبل البحث عن مجاهل الكون، وغوامض الوجود فيه.

من خلال تلك الرغبة العارمة، نشأت تصورات الانسان القديم، لما وراء الطبيعة، وبسبب من ذلك، نشأت آداب عديدة عبر التاريخ، حول عروج الأرواح الانسانية بعد المهات، الى مصادرها الأولى في السماوات، وقد اتخذت لها في بعض الفترات، طابع العقيدة المقدسة، وفي بعضها الآخر، طابع التفلسف المثالي، فكان ذلك الأدب الأسطوري الذي ظهر باليونان، متمثلا بصفة خاصة في الالياذة والاوذيسة، وذلك الأدب الفرعوني القديم، متمثلا في كتاب " الموتى "، وكان ذلك الأدب الذي نشأ حول " التوراة "، وكان ذلك أيضا الأدب الذي نشأ في ظل الحضارة العربية الاسلامية، والذي عرفناه في عدد من النصوص المتصلة بالتفسير القرآني، وحول الأحاديث النبوية الكريمة، وما تمثل كذلك في عدد من النصوص الابداعية، كرسالة " التوابع والزوابع " لابن شهيد الاندلسي، و " رسالة الغفران " لابي العلاء المعري، ولك ان تقول مثل ذلك بالنسبة لامم أخرى كثيرة، كالصين والهند، وأقوام أوروبا الغربية والشرقية على السواء.

غير ان الملفت للنظر، هو ان هذا الأمر اتسع اتساعا كبيرا، بالنسبة للحضارة الاسلامية، وبخاصة في فترات ضعفها، وان كتبا كثيرة وضعت مستقلة، لتقرير حالات العروج، ووصف اماكن النعيم والجحيم والحساب، وما سبق ذلك من نزع للروح من جسدها الفاني، ومن امتحان قاس

في القبر الذي انتقلت اليه، مع العلم ان هذه الاحوال، دخيلة على عقيدة الاسلام، وان القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة، لم يتعرضا لها الا في حدود ضيقة، حينما يكون الأمر متصلا بالجنة التي أعدت للمتقين، أو بالنار التي سعرت للكافرين، امّا ماعدا ذلك، من تفصيل للقبر، كيف تكون ضمّته، والسماوات وكيف تنتقل الأرواح اليها وتستقر بها، أو كيف تتبدّى الملائكة، وفي اي شكل تكون، رهيب أو غير رهيب ؟ فتلك أمور لا صلة لها بالقرآن والحديث، وانما هي مركبة تركيبا، وضعت وضعا، لا يقبله الفكر الديني الاسلامي، القائم أساسا على منطق في الخطاب، متفق وطبيعة التصور العقلي للانسان، في فهم الأشياء الحاضرة والغائبة على السواء، ومما زاد الأمر خطورة، ان العدد الكبير من الناس، منهم بعض المثقفين، يعتقدون اعتقادا جازما، بصلة تلك الروايات بعقيدة الاسلام، بل انها عندهم من قضاياه الجوهرية، التي ينبغي ان يتوقفوا عندها طويلا، ليناقشو ويجادلوا ما بها من خروج عن حدود العقل، وما تطفح به من جبروت رباني، يتنافى وصفة كمال العدل فيه، وتجاوز بعضهم ذلك، الى محاولة وضع " عمل مسرحي " يعتمد فيه اعتمادا أساسيّا على أصول هذه القضية، ورغم ان صاحب هذا العمل المسرحي، وهو عز الدين المدني، ذكر انه اعتمد " رسالة الغفران " لابي العلاء، الا اننا استطعنا ان نكتشف

بكل وضوح وجلاء، ان عمله المسرحي، المسمى بالغفران، لم يكن الا عملا مشوها لكتاب " دقائق الأخبار " لمؤلفه الامام عبد الرحيم بن احمد القاضي.

ان صاحب هذه المسرحية، وغيره من الكتاب، لهم ان يرجعوا الى ما يشاؤون، من كتب التراث الأدبي وغير الأدبي، ولهم ان يستوحوا ما شاء لهم الاستيحاء، وان يبعثوا لنا من تلك الأصول الأولى، أدبا يتفق ومفاهيم عصرنا المتطورة، وان يقدموا لنا أساليب تحليل جديدة، نراجع بها مشكلات واقعنا، ونستبصر بها قضايا التحول المصيرية الكبرى، ولكن شرط ان يلتزموا بحدود القيم الاصلية الثابتة، التي نهض عليها ذلك التراث، وقامت بها تلك الحضارة الكبرى، وبشرط أيضا، توفرهم على مقومات الفن الضرورية، لانها هي الأساس في كل عمل ابداعي، والا انقلب الى تهريج وفوضى، فاذا أصبح انتحالا وسطوا، فتلك هي الطامة الكبرى.

ان التراث العربي الاسلامي متنوع، وحافل بالامكانات الفذة، التي يستطيع أي فنان أصيل ان يرجع اليها، وان يسوي منها قطعا أدبية رائعة، تلبّي احتياجات عصرها، من منظور وعيها التاريخي الجديد، من جهة، وتربط أواصر الصلة الحميمة بماضيها المجيد، كحلقة جديدة، تتكامل بها سلسلة تراث حضاري، ينبغي ان يستمر صعوده حتى

النهاية، من جهة أخرى، لهذا فان المسؤولية تعظم وتشتد، عند الاقدام على مثل ذلك العمل، فليس كل كتاب يكتب بالعربية، هو جزء من تراثنا، وانما الذي يستحق ذلك بالفعل، هو الذي يعبر عن خصائص تلك الحضارة العربية الاسلامية، ويبرز جوهرها الأصيل، الذي تحددت به مفرداتها، عبر عصور النقاء الخالصة، بل ان القضية لتنعكس انعكاسا، وتنقلب أوضاعها جملة، اذا لم نوغل في التمعن، ونحرص الا نقع في السهولة المجانية، وربما يغر البريق البعض فينخدعون، فاذا هم ينحرفون انحرافا شنيعا، لا يستطيعون معه، ان يكون لهم تاويل يذكر فيعذر.

لقد تراءى للبعض، ان النصوص المتعلقة بأدب " المعراج " هي نصوص اسلامية، نابعة من جوهر العقيدة الدينية، فاقبلوا عليها يدرسونها، ويستخرجون منها ما يعنّ لهم، من آراء ونظريات وصور، ويقدمونها للمحاكمة، ساخرين مرة، رافضين مرّة أخرى، دون ان يتمهلوا قليلا، ليعرفوا صلتها الحقيقية بالحضارة والدين الاسلامي، لذلك تشتد الحاجة في هذا الوقت بالذات، لرفع هذا اللبس، الذي يغشي بضبابه كثيرا من جوانب عقيدتنا وتراثنا، الذي بقي مدة طويلة من الزمن مهملا، دون عناية مسؤولة، تحيط به الأساطير الاسرائيلية، كما وردت في التوراة، بعد ان اصابها التحريف، وغير التوراة، وتستبد به روايات نصرانية، حظ

الخلط المتعمد فيها أكثر من أي شيء آخر، فقد ذكر الدكتور احمد أمين : " انه في عصر التابعين، تضخم التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الاسلام، وميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن، من احداث يهودية ونصرانية، وقد تتبعنا في تفسير ابن جرير الطبري، كثيرا من الآيات التي وردت عن بني اسرائيل، فاذا بطل الرواية فيها وهب بن منبه، وهو من يهود اليمن واسلم، فكان يقص كتب اليهود واحاديثهم من غير تحر دقيق، ومن غير ان تصبغ روايته صبغة علمية. . . كما تتبعنا كثيرا من الآيات التي وردت عن النصارى، فاذا كثير مما يرويه الطبري عن ابن جريج، وابن جريج هذا، هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ويقول الذهبي في " تذكرة الحفاظ " انه من أصل رومي، فهو نصراني الاصل، ويقول عنه بعض العلماء، انه كان يضع الحديث، وانه تزوج تسعين مرة، زواج متعة " (1)، والتفسير بالاسرائيليات والنصرانيات، يقصدون به الروايات التي تروى لشرح آية من آيات القرآن الكريم، وهي مأخوذة في أغلب الأحوال من التوراة أو الانجيل، او من الاساطير المتداولة بين اليهود والنصارى، فكان اذا تليت عليهم آية فيها " اشارة الى بدء

---

1 ـ أحمد امين، فجر الاسلام، ص : 5 . 6، ط : دار الكتاب العربي، بيروت.

الخليقة، طلبوا بقية القصة، واذا تليت عليهم آية فيها اشارة الى حادثة لنبي، لم يقتنعوا الا باستقصائها، وكان الذي يسد هذا الطمع التوراة، وما علق عليها من حواش وشروح، بل وما ادخل عليها من اساطير، وقد دخل بعض هؤلاء في الاسلام، فتسرب منهم الى المسلمين كثير من هذه الاخبار، ودخلت في تفسير القرآن، يستكملون بها الشرح " (2).

ويعلل ابن خلدون لذلك، بان " العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وانما غلبت عليهم البداوة والامية، واذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتشوق اليه النفوس البشرية، في اسباب المكونات، وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير، الذين اخذوا بدين اليهودية، فلما اسلموا بقوا على ما كان عندهم، مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية، التي يحتاطون لها مثل اخبار بدء الخليقة، وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك " (3).

---

2 ـ نفس المصدر : ص : 200.

3 ـ مقدمة ابن خلدون، ص : 439 ـ 440 ـ المكتبة التجارية بمصر.

فانت ترى، ان المعلومات التي كان يقدمها أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فضلا عن انها اجنبية غريبة عن جوهر الاسلام، فهي سطحية لا عمق فيها ولا ثراء، املتها اخيلة قاصرة، لا قدرة لها على النفاذ إلى حقائق هي دقيقة بطبعها، عجز العقل المتحضر المتفلسف نفسه، ان يحيط باسرارها، ولولا خشية التكرار والاطالة، لقدمت للقراء الأعزاء، الكتاب الذي اخذ عنه "عز الدين المدني" مسرحيته "الغفران"، ولبينت لهم ان كتاب "دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار" الذي ترجمه إلى الألمانية المستشرق الألماني الأستاذ "وولف كيبيك" (4) منذ اكثر من مائة سنة، هو في جملته وتفصيله، اخبار اسرائيلية، أو سمعيات اسرائيلية كما يقول المفسرون، وأبطال أخباره هم أبطالها التاريخيون، ابن سلام وكعب الأحبار.

وصفوة القول، ان أدب المعراج هذا، هو أدب لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه أدب ديني، يعكس التصور الاسلامي لبدء الخليقة، ومصيرها في عالمها الأخروي، وانما ينبغي أن ينظر إليه، على أنه أدب يصور جانب الخرافة والاسطورة، في فكر اقوام وأفراد، حظ الرقي العقلي والحضاري بعامة، عندهم جد قليل.

ظاهرة الجنون والانتحال

من المعلومــات الشـائعـة في علم النفس التحليلي، ان الأدب يأسر قلوب الكثـيرين، من أصحـاب الاختـلال العصبي والنفسي، وان احوالا غامضة، تستولي على عقولهم، تدفعهم دفعا الى ان يكتبوا القليل أو الكثير، والى ان ياتوا من الحركة والاشارة، ما يخيل اليهم في بعض ساعات الصحو، انهم أدباء، وان ما ينشئونه من ألوان الكلام، هو أدب رفيع، أملته الضرورة العبقرية، وانهم لا يقلّون في أحسن الأحوال، عن أولئك الأدبـاء المشهـورين، الـذين يتخـطف النـاس نتـاجـاتهم، وتسعى اليهم أجهـزة الاعلام، لتقيد الشاردة والـواردة مما يظهـر من أحـوالهم، لذلـك فانهم يقتحمـون المجالس والندوات، ويعلنون من الكلام ما يبتسم له بعض الناس سخرية، وما يبتئس له بعضهم الآخر، أسفا وحزنا، على ما أصـاب هذه النفـوس من ألوان الشر والبلوى، وما تعرضت له من قسوة الحياة والظروف والمجتمع، ولكنهم في النهاية، يخرجون مندفعين، كما اقبلوا على المجالس الأدبية مندفعين.

ان اكتشاف هذه الظاهرة المرضية، لا يحتاج الى كبير تدبر، أو طويل توقف، تكفي النظرة العابرة، حتى تُرسم الدائرة المقفلة، ويمضي كل في طريقه بسلام، أو غير سلام، بيد أن ظواهر أدبية أخرى، ترسم لها من فنون الاستخفاء والتمويه، ما لا يفيد معه التدبر الطويل أو القصير، بل لابد أن تتوافر عوامل متعددة، قد تكون الصدفة احداها، حتى تفك الغازها، ويتعرف الباحث المتأني الى الحقائق الخفية التي نسجت خيوطها، وقدمتها بذلك البريق اللامع، الذي يخطف الأبصار، ويحوّلها عن مقاصدها الجميلة، تلك هي ظاهرة الانتحال الأدبي والفني، والسرقة الكاملة، أو غير الكاملة، فقد يبلغ بها الاحكام، ان تخفى ويتداولها الناس، ولا يعرفون من أمرها الا الاشارة العابرة، أو الغمز الخفي، الذي لا يقدم بين يديه، دليلا قويا أو ضعيفا، وفي أحايين أخرى، يلمع اسم أدبي، وتنتشر له شهرة، تتجاوز حدود الوطن الضيق، فيعلق عليه القراء آمالا عريضة، ويتحدثون الى أنفسهم وإلى بعضهم بعضا، بأن أدبنا استقام على الطريق، وان اليتم الأدبي قد انتهى، وان التاريخ الأدبي، ينبغي ان يكتب منذ الآن، ولكن المفاجأة المدوية تقع، فاذا ذلك الاسم اللامع، بريق يتبدّد، واذا هو من صنع " اليد الخفيفة " التي تمتد بلين الى آثار الغير، فتسلب وتشوه وتقتبس وتترجم، ولاحظ لها في آخر الأمر الا الاحتيال، والا الفراغ

المرعب، يعلن عن نفسه بذلك السقوط العجيب، ويتعجب الناس في تعليل هذه الظاهرة، هل هو خلّب الشهرة، تغري وتعمي وتصمي ؟ أو هو السعي الى المال والثروة والوظيف ؟ أو هو عمل من أعمال الضعف النفسي والانحلال الخلقي، الذي لا يجد له اشباعا، في غير الممارسة الشاذة !! ؟

ومن حق الناس ان يتعجبوا، وان يمعنوا في التعجب، فان هؤلاء المنتحلين، يمضون في أعمالهم المعتادة، كأن شيئا لم يكن، وكان هذا الناقد أو ذاك، لم يكشف للرأي العام الأدبي حقيقة الأمر، وكأن الناس لم يعرفوا ما ينبغي ان يعرفوا، ولم يتحدث الحديث الواجب، الذي يقتضيه الحرص على حياة أدبية وثقافية جادة، تنطلق من قاعدة متينة، وتواصل طريقها بتؤدة، حتى تبلغ كما لها المنشود.

لقد عرف القراء في السنوات الأخيرة ـ آخرها سرقة المدني ـ ألوانا من الانتحال الأدبي والفكري، في اكثر من جنس أدبي واحد، وعرفوا ان لا حجة لاصحابها في قليل أو كثير، ضرورة ان الادانة قاطعة، وان دفعها لا يمكن بحال، ولكن الغريب، ان مؤسسات ثقافية واجتماعية كثيرة، مازالت متشبثة بهم، وتقدم لهم العون والدعم، الذي لا يقدم عادة الا للمبدعين الحقيقيين، هل هو الانتحال الاجتماعي، يفرض نفسه أيضا، ويكمم بعض الأفواه، فلا تقدران تلتزم بالقرار الواجب ؟

ان اخشى ما نخشاه، ان تتكرس هذه العادة السيئة بين ناشئتنا الأدبية الجديدة، وان تدفعهم السهولة الاعلانية، الى ان ينخدعوا، فيحسبوا الأدب عملا سهلا، حظ اليد العمياء فيه، أكثر من حظ الخيال والعقل والابتكار، وان قصارى ما يطلب اليهم، ان يقرأوا كتابا، فينسخ أو يقلب أو يترجم، ولا شيء بعد ذلك،

وحتى نحول دون ذلك، فان الواجب الوطني والقومي والاخلاقي والأدبي، يدعو الى اليقظة المستمرة، وإلى ان تكون الصراحة الصارمة، هي لغة الحوار الوحيدة.

في المسرح التونسي

يقام بتونس أسبوع للمسرح، يتجدد بانتظام منذ سنوات عديدة، تعرض فيه على الجمهور ألوان من الفن المسرحي، مما انتخبته فرق التمثيل بالعاصمة وسائر الولايات الأخرى، من أعمال قدّرت انها جيدة أو مقاربة، وتعقد فيه ندوات للنقد المسرحي.

ومن غير شك فان هذا الاسبوع السنوي، سيكون مناسبة مهمة، للوقوف على خصائص هذا المسرح، الذي بذل له من العناية والتشجيع ما لم يبذل - فيما اتصور - لعدد من القطاعات الثقافية الاخرى، التي لا تقل خطرا عن المسرح، في النهضة بالمجتمع، والسموّ بالفكر والذوق والعاطفة جميعا، وسيتمكن الجمهور والنقاد وغير النقاد من ان يتعرفوا الى مستويات الفن الذي قد يكون وصل اليها، والى الحدود التي قد يكون تعطل عندها، فعاقته عن ان يبلغ شأن الفن الرفيع الذي يلهم النفس، ويكشف لها من الرؤى الايجابية، ما تقتحم به مصاعب حياتها الكثيرة التي لا تكاد تنتهي، وسيكون من وجه آخر، فرصة لأن يتعرف أهل هذا الفن أنفسهم، من الذين يقومون بالتمثيل والاخراج وسائر العمليات الأخرى، التي لها صلة قوية أو ضعيفة بالتمثيل

المسرحي، على رأي الآخرين، مختصين أو غير مختصين، فيلمسوا بأنفسهم ما يؤاخذون به، وما ينتظرهم من جهد عظيم، حتى يحققوا كمال الفن ورفعة الجودة، وحتى يجعلوا للأمل العريض الذي علق عليهم معنى، لا يتبدد فيذهب سدى.

ونحن لا نريد ان نكون قساة، فنرفض ما يعرض أمامنا من ألوان هذا الفن، أو ان نقف موقف الجمود لعدد من الأعمال، بذل أصحابها في سبيلها ما ينبغي أن يحمدوا عليه، وان يكونوا جديرين بشيء من الثناء والشكر، لاننا ندرك جيدا، ان طريق الفن صعبة وملتوية، وانه ليس من السهل الجري دون تعثر، أو أن تحقق الذروة في فن مازال جديدا في حياتنا.

ولكن لابد من ان تقال كلمة أو كلمات، تشير الى ما ينبغي ان يقال، والى ما يحسن بأهل المسرح عندنا، ان يتعرفوا عليه من وجوه الرأي الاخرى، التي تستهدف بناء حياة مسرحية قوية، لا ضعف فيها ولا قصور، وانما هي تمضي مستقيمة جادة، تحقق من الأهداف المتنوعة، ما تحققه الحياة المسرحية الاخرى في كثير من دول العالم الراقي، أو التي اصطلح على تسميتها بذلك.

أول ما يتبادر الينا في هذا السبيل، ان أغلب كتاب المسرح عندنا، وأغلب مخرجينا، اندفعوا في وجهة فنية معينة، يغلب

عليها التجريب والبحث كما يقولون ، وأوغلوا في ذلك ايغالا ، خيل للكثيرين معه ، ان الفن المسرحي الصحيح ، لا يمكن ان يتحقق الا من خلال هذه الوجهة ، والا من خلال هذا الطريق ، التي سارت فيها الاغلبية ، بينما المتدبر في النتائج الراهنة التي وصل اليها اصحابنا ، يجدان اكثر المسرحيات التي عرضت ، استهلك بعضها بعضا ، واقتبس بعضها من بعض ، وسارت محاورها في مناهج ، تبدو في الظاهر مختلفة ، ولكنها في الحقيقة تدور في منهج كبير واحد ، هو المنهج التجريبي ، انا مدرك ما لمسرح - بريخت - الملحمي التعليمي من اهمية وذيوع في كثير من مجتمعات عصرنا ، وادرك ما يمتاز به من فعاليات التغيير الفكري والاجتماعي ، ولكن هذا المسرح ، ليس هو المسرح الوحيد الذي يحقق تلك الغاية ، ويحقق دور الفن في الحياة والمجتمع ، وانما هناك مسارح أخرى كثيرة ، تقوم بجانبه أو يقوم هو بجانبها ، بل احسب ان تأثيره لا يبلغ مداه ، الا بوجود ألوان أخرى من المسرح ، لها هي أيضا مناهجها في التعبير والتأثير كذلك ، وتملك ان تقدم لنا الغذاء الحي ، الذي نحتاجه في هذه المرحلة من التطور ، ما لا يستطيع هو ان يقدمه لنا .

ان من السهل ان تجرب وتبحث ، في المسرح وغير المسرح ، ولكن ليس بالضرورة ، ان تحقق نتائج فنية رائعة ، تهز المشاعر البعيدة ، وتحرك الافكار من سكونها المعتاد ، وتذهب بالنفس

مذاهبها، في تصور جديد للحياة، وفيها يمكن ان تستحيل اليه من تغير ايجابي، ذلك رهين بقدرة خاصة، واستعداد فكري وفني معين، يصدر عنه رجل المسرح، مخرجا كان أو مؤلفا، اذ يتصدى لمادته الغفل، فيسوي منها اثره المتميز، فاذا هو الامتاع يستولي على النفس فيطربها، واذا هو الرؤية البصيرة، تتمكن من العقل، فتقوده الى طريق هدايته، واذا هو التجربة تتمحص فتعتني بها الحياة، وتتسع بها دروبها، ويسلكها السالكون فاذا هم على دراية.

من هنا جاء السقوط الفني لكثير من الأعمال المسرحية، التي قدمت خلال السنوات الماضية، فقد رأى الكثير من اصحابها، ان الأثر المسرحي يمكن ان يرتجل، وان يبحث بحثا عن مادته، من هنا وهناك، وانه يكفي ان تضع خطوطا عامة لمسرحيتك، وان تجعل لها شخصيات، "تسمى او لا تسمى"، ثم تسعى إلى المقاهي والأسواق والبيوت، فتتحدث إلى من تحب ببعض ألوان الحديث، وليتحدث اليك بما يشغل نفسه، من هم صغير او كبير، ثم انكفئ إلى مكتبك، ورتب ما ينبغي ترتيبه، وليكن حبكك لما رأيت وسمعت دقيقا، حتى يظهر قالبك المسرحي المخطط، واقعيا او هو ادنى إلى مشاكلة الواقع، فإذا رأيت الاستعانة بعدد من اصحابك وغير اصحابك، فلا جناح عليك، فلهم ان يعد لوا بالحذف والزيادة، ما شاء لهم التعديل، غير انه يلطف بك ان تذكر

اسماءهم إلى جانب اسمك حين يظهر، فإذا وجدت القائمة قد طالت، فلا مندوحة لك حينئذ، من الاعلان بشجاعة، ان النص جماعي، ولكن لابد لك من ان تصرح ساعتها ايضا، انك مجدد في هذا الفن، وان الكتابة القديمة التي ينهض بها مؤلف واحد، اصبحت لا تلائم العصر، ولا تطور الفن المسرحي نفسه.

هكذا يكتب عدد من الكتاب مسرحياتهم، وهكذا يعرضونها على الناس في دور المسرح المختلفة، والغريب انهم يبتئسون اشد ما يكون الابتئاس، حين يقال لهم، او يكتب عنهم، ان هذه الأعمال المسرحية مفككة وغير مترابطة، وان حظ الاثارة والتهريج فيها يطغى على حظ الفن، فلا يكاد يبين، وان الفكرة المركزية ضائعة، او انه يلقى بها القاء فجّا لا جمال فيه ولا تفنن.

ان الكتابة للمسرح ولغيز المسرح، ليست من السهولة بهذه الدرجة التي يتصورها اصحابنا، وانما هي اشق من ذلك، انها قدرة، لا تؤتى الا للذين استعدوا لها طويلا، بالدراسة وغير الدراسة، ووقع في انفسهم ذلك الاجلال العظيم للفن، فلا يقدمون عليه الا بما يقتضيه مقامه، من تهيب واحترام ليست الكتابة واجبا مؤكدا، على كل من قرأ كثيرا أو قليلا او فرض عين، على كل من سمحت له الظروف أن يكون موظفا او عاملا بقطاع المسرح، انها امكانية، تتاح لهذا ولا تتاح لذاك.

غير بعيد من هؤلاء من التجأ إلى وقائع التاريخ المعروفة وغير المعروفة، يأخذ منها اعماله المسرحية، فهو يأخذ نصوصا متقاربة ومتباعدة يلحمها إلى بعضها، بعد ان يغير فيها القليل او الكثير، وبعد ان يضيف إليها اشياء واحاديث، مما يقع في حياة الناس الجديدة، ثم يخرج علينا بانها اثر مسرحي جديد، لا عهد للحياة المسرحية به، قديمة كانت او حديثة، بينما هي في الحقيقة مجموعة نصوص معروفة، وضعت حرفيا كما هي، او وضعت بعد ان اعيدت كتابتها، كيف نحكم على هذا الأثر؟! او قل كيف نسميه؟ بعضهم يقول إن هذا الفن العظيم أصبح مطيّة ذلولا، يركبها الدعي الفارغ الا من دعواه، ويسعى إليها القانص المتعجل، يطلب شهرة او مالا، وحتى بتنا نرى اهل الاقتدار ينزوون متحسرين، فلا يؤبه لهم ولا يسأل عنهم، ولو رأينا اصحاب الجديد هؤلاء، يقدمون اعمالهم - نصا واخراجا وتمثيلا - وفق مذهب مسرحي معين، ومن خلال منظور فكري محدد، لقلنا ان هذا وجه من وجوه الفن، لا بأس ان يروج بيننا، وان يتعرف اليه مثقفونا وغير مثقفينا، ولكن القضية ان تلك الاعمال، حين تقدم وتعرض أمامك، تجدها شتيتا من كل لون، وتنويعا على كل مذهب، فلا تكامل ولا تآلف ولا انسجام، تجد شيئا من براند يللو الايطالي، وقليلا من بريخت الالماني، ورائحة من جوتوفسكي البولوني، يضيفون اليه خليطا من سماجة الرأي والقول، ويزعمون لك

انهم يقدمون الجديد، وانهم يريدون ان يعيشوا عصرهم، ويرفعوا الناس اليه، وما دروا أنهم لم يصدقوا أنفسهم والناس، ولو صدقوا لآثروا الوضوح، وواجهوا الناس بما يحسنون من ألوان الفن المسرحي، ولأخذوا أنفسهم بالجد الجاد، الذي يبحث ويتطور بالبحث، الى ان يصل بالعمل الفني الى صورته الكاملة، التي تسر وتعجب وتنفع الناس.

فهل هناك ازمة في هذا الفن ؟

نعم هناك ازمة، ولا سبيل الى ان تحل ـ في نظري ـ الا اذا وعى محبوا هذا الفن، انهم يمارسون اجلّ الفنون شأنا، وان هذا الفن يتطلب استعداد مركزا، ورؤية فنية وفكرية، تتجاوز العابر من القيم والاحداث، وتنفذ الى الجوهر المصفّى من الحقيقة والفن، حيث تشمل برحابتها، اصالة التاريخ وكينونة الشعب وماهية الحضارة.

ان المدارس المسرحية المختلفة، لا تنمو وتتطور، الا اذا كتب لها ان تتجاور، فتتحاور وتتناظر، وتعلن رؤاها للناس لعلهم ينتفعون، وان اهمية المسرحية لا تكمن في الملابسات البراقة التي تتقدم بها، وانما تكمن في الصورة الايجابية التي تستقر في الافئدة والعقول، فيتفجر بها الواقع، ويزكو بها الخيال.

ان مهمتنا الأولى، ينبغي ان تتجه الى المسرح، والى الوضع الذي يضطرب فيه منذ مدة طويلة، واستقر في نهايته،

عند حدود المسرح التجريبي، وما يعنيه ذلك من طمس لكل الاساليب المسرحية الاخرى، التي ترعرعت ببلادنا لفترة طويلة، مما جعل حركتنا المسرحية تقفز برجل واحدة، قفزات لم تسلم دائما من التعثر والوقوع.

والحق ان المسرح التجريبي هذا، ليس سيئا في حد ذاته، وانما يكون كذلك، حين نلعب به على غير اصوله المعروفة، ونتحول به الى نوع من الدروشة الفنية، والحركة العمياء، التي لا هدف لها الا ان تتملق وتثير وتداعب الغرائز السفلى وغير السفلى، وسط غياب تام لمعنى الفن كما ينبغي ان يكون، ازاء ذلك فنحن نرانا مضطرين الى ان نعتدل في الامر، وان نجعل المسرح يأخذ طريقه المتوازن، كما يتخذه هنا وهناك، في بلاد العالم المختلفة، من التي تشهد ازدهارا، يظل يطرد بانتظام، وهذا التوازن الذي تأخذ به الامم الاخرى، وينبغي ان ناخذ به نحن أيضا، يمكن ان يتم بالصورة الآتية تقريبا :

أولا : مسرح كلاسيكي، تقوم به فرقة واحدة أو عدة فرق مسرحية، تقدم من خلاله المسرحيات الكلاسيكية الممتازة، التي انتخبتها آداب الشعوب القديمة والحديثة، واستطاعت ان تستوعب اشواق الانسان حيثما كان، وان تركز المعاني الجوهرية، التي انطلق بها الانسان، كصاحب قيم عليا، ومصدر أفعال تؤصل

تلك القيم، في واقع لّما يزل يتأبى ويتمانع .

ثانيا : مسرح شعبي ، يعرض في لغة سهلة، موضوعات الحياة اليومية ، وهذه الشؤون التي تعرض للفرد ، كلما عنّ له ان يستقبل امرا أو يستدبر غيره، ليكن تعليميا أو تهذيبيا، أو كوميديا ، فان من مهامه ان ينهض بذلك .

ثالثا : مسرح تجريبي : تعرضه القاعات الصغيرة ، تقدم فيه المسرحيات الفلسفية الغاضبة أو غير الغاضبة ، يناقشها المثقفون أو لا يناقشونها ، المهم ان يكون نافذة ، يلتقي عندها اصحاب البدوات الفنية ، باهل الاختصاص من اصحاب الثقافة الراقية .

مسؤولية النقد الأدبي

ان النقد الأدبي في تونس، واهن الحركة، لايكاد يتقدم، خافت الصوت، لا يكاد يبلغ الاسماع، باهت الصورة، اضطربت خطوطها والوانها، حتى عجزت ان يكون لها ابعاد، تدرك بالحس أو العقل أو الذوق، يتدرج في محنة الوجود واللاوجود، بين السعي الى الظفر بحقائق فكرية وفنية، يمكن ان تثري حياتنا الأدبية، وبين الخنوع العاجز، أمام الترهات والاباطيل، التي يروج لها الكثيرون. . . الذين ينادون ببعض هذه الاراء النافية، جد حريصين على ان يضعوا بجانبها، اخرى ثابتة، يبعث نغمها المتكرر الرتيب في انفسهم، ومن حولهم، قناعة رضى، وسكون ارتياح، دونه الفوز في متاهة الخمول والخيبة !!! .

فان النتاج الأدبي، هذا الذي تحتفل بتقديمه، اجهزة مختلفة، بكل اجناسه المعروفة، وغير المعروفة، يحقق ازدهارا وانتشارا، لم تعهده سابقتنا الادبية، فاض بالشهرة او فاضت به، فملأ الاسماع الدانية والقاصية، من التي لطفت بالاصغاء، او عجزت بالوقر، فغنّى الكاتبون يطلبون المزيد !!

غير ان طرح القضية بهذا الشكـل، كما نقـرأ بين الفينة والفينة، يوحي بأنانية متوطنة، وبتفكير جزافي، يلقي القول على عواهنه، فيدمغ الآخرين بمسؤولية التبعة، حتى يحمي نفسـه من حرج السؤال، عن واقـع أدبي وثقافي، هو طرف موضـوعي في رسم معـالمه، وفق أسس لا تثبت دائما للنقد والمراجعة، فليس صحيحا ـ مثلا ـ ان الشعر والقصة والنتاج الأدبي بعامة، يجد له صدى الاستحسان في منطقتنا العربية، لاننا نذكر جيدا ما كتبه الناقد المصري رجاء النقاش، عن ملف الأدب التونسي، الذي نشرته مجلة الآداب البيروتية في بداية السبعينات، وما انتهى اليه، من ان الشعر التونسي، ما يزال يجتر نفس المراحل، التي قطعتها الحركة الشعرية العربية الحديثة، وانه يخشى ان يرث الاخطاء التي وقعت فيها تلك الحـركـة، واشـار الى قصيدة بعنوان " الكعكة المسمومة " لمحمـد العـروسي المطوي، فتعجب من انـدفـاع صاحبها لنشرها، رغم انكسار وزنها، واضطراب لغتها، ونذكر كذلك رأي عبد الرحمن الابنودي، شاعر العامية المصرية، اثناء لقاء أدبي بدار الثقـافة ابن خلدون، من ان الشعر التونسي، لا يواكب قضايا الشعب والجماهير التونسية، وانما هو يحلق في أجواء عامة، فقدت جاذبيتها بواقع الأرض، التي يقف عليها شعـراؤنـا، أما عبد الوهاب البياتي الشاعر العراقي الكبير، فانت تدرك عنف آرائـه في شعـر شعـرائنا، وما تصادى في

جنبات النوادي من نقاش حولها، فاذا انتقلت الى القصة، فانـك لن تجد كبـير اهتمام بها، او محاولة درسها، للخروج بخصـائص مميزة، أو غير مميزة لها، غير تعقيبـات سريعة، يكتبها هذا او ذاك، غبّ زيارة ود ومجاملة، او انفعال بحرارة لقيا، وكـرم وفـادة، كالذي فعله عبد الرحمن مجيد الربيعي الـروائي العـراقي المعروف، باحدى المجموعات القصصية الحديثة - البعد الخامس - لعروسية النالوتي - ومع ذلك فهو يحدد له رأيا، لا ينم عن رضى وارتياح، فاسلوب البناء الفني لدى اغلب كتـاب القصـة عندنا واحد، او متقارب، كأنها يمتحـون من بئـر واحـدة، او ينظرون في كتاب معين، لا يملكون غيره، وعلة ذلك في رأيه، تأثر بعضهم ببعض، في دورات اللقاء الاسبوعي، بنادي القصة، مما ولّد في ذائقتهم الفنية، انعكاسا اسلوبيا متشابها، يحاول احيانا ان يتفرع الى جداول صغيرة، ولكنها سريعا ما تلتقي في نهر واحد، ثقل مائه لا يساعد على الاقلاع.

ويمكن لي ان أذكر أقوالا أخرى، تتشابه مع ما قدمت، ولكني اخشى على نفـوس ان تزداد غضونا، وعلى وجوه ان تسودّ جهاما، لانها اعتادت الاطراء، والقول اللين، فيرتفع بها في وهم التخييل، ويسبح بها في خواء السرور، الى أجنة خضراء، تقـوم في صحـاري السراب، نعم هنـاك بعض الحديث عن الأدب التونسي، في عدد من الصحف والمجلات

العربية، ولكنه حديث لا ينفخ في زهرنا وفخارنا، أو لا ينبغي أن يكون كذلك، فليس عيبا الا تلقى آثارنا الادبية، التقدير الذي تستحق أو لا تستحق، وانما المهمّ بالاساس - في نظري - ان نعرف منزلتنا الادبية، في وضوح صورتها الكائنة، بغير اخراج بهلواني، يحسّن أو يقبح من جوانبها، وان نعرف بالتالي قدر انفسنا، فنتسامى عن الادعاء الأجوف، بأن أدبنا بحر صاخب زاخر، لا يستطيع الآخرون الملاحة فيه، أو انه ذو معان علوية، تكل افهام العديدين عن الاحاطة به، فما الغاية عند ذوي النظر الصائب، الا ان نقدم الاثر الجيد الذي يبقى، والشاعر المبدع، الذي يحتضن هموم شعبه الحقيقية، فتكون تعبيرا عبقريا عن هموم الانسان حيثما كان، والكاتب الاصيل الذي يخلص لقضايا الفن والادب والمجتمع، فيجعلها فعالية ناجزة، ذات جرأة واقتحام، تخدم التقدم والتطور، نحو غد للانسان عظيم، بذلك نستطيع ان نرسي دعائم حقيقية لادب يستجيب لطموحات اجيالنا المختلفة، ونضيف اضافات بارزة، لها وزنها في حساب الحقيقة والتاريخ والحضارة، ان الاثر الجيد يفرض نفسه، والنغم العبقري لابد ان يقتحم الاسماع، وتهتز له النفوس والعقول، وقد عرف المشارقة نبوغ ابى القاسم الشابي، فأشادوا بــه وهو حي، واكثروا القول فيه وهو راحل، وحقق بذلك نبوته المجهولة، في عالم الاحاسيس والمشاعر والانغام، وقرأوا

لمحمود المسعدي ـ سدّه ـ فاحلوه منزلته المحترمة ، وأعجبوا به أيما اعجاب ، واعتبره العلامة الدكتور طه حسين ، احد الآثار القليلة التي ينبغي ان يفخر بها أدبنا العربي الحديث .

والعجيب ان الذين ينتصرون لادب هذه الأيام ـ في تونس ـ ويتهمون النقد الأدبي ، بالتقصير في خدمة ذلك الادب ، لم يتصد واحد منهم ـ فيما اعلم ـ بالرد على تلك الآراء والتعليقات ، وبيان وجه الخطأ والصواب ، لعلهم تعودوا تلك الجلسة المريحة ، وهم يعطون حديثا لصحيفة أو مجلة ، أو ألفوا استمراء مقالة ، يكتبها هذا الصديق المجامل ، أو ذاك من الذين تعنوا أقلامهم بالعاطفة والترغيب ، ولكن أي مسؤولية ، ينبغي ان يتحملها النقد الأدبي في بلادنا ؟ هل نحمله مسؤولية آثار أدبية عديدة ، يهزأ بها القارئ حين يتصفحها وهو متعجل ، أو يحتقرها بعد ان يقرأها في إناة وريث ؟ أو نحمله مسؤولية الجمود الذي يغلف حياتنا الأدبية ؟ ربما هم يقصدون هذا وذاك ويطلبون الى نقادنا ـ على ندرتهم ـ ان يتابعوا ما يقع بأيديهم من قصص وأشعار ومقالات ، فيعلنوا للملأ ، انها آثار بديعة ، من معجزات عقول عبقرية ، لم يصادفها الحظ ، ان تتبوأ المكانة المرموقة ، والعزة القعساء ، التي لا تدانيها مكانة أخرى في القديم أو الحديث !! .

اما اذا كانوا جادين حقا، في دعوتهم، فليفسحوا من صدورهم، وليرفعوا الايدي المتشنجة، حتى يستطيع النقد ان يقوم بدوره الاساسي، وليتجهوا بجد حقيقي، الى ان تسود الكلمة الصريحة، ولو كانت لا تعجبهم، ولا تساعدهم في بناء مكانات وهمية، في ميدان لا يصح ان تسيطر فيه الا الفكرة الايجابية، والا الصورة المبدعة، والا الطاقة الخلاقة، القادرة على العطاء، بغير حدود مرسومة، أو غير مرسومة.

لقد اثار نفر من الكتاب، منذ مدة طويلة وقريبة، قضية المناخ الادبي، الذي يسيطر على حياتنا الثقافية، وما تمتلئ به الساحة الكبرى، من أعاجيب التناقض والفوضى، ومن أساليب بدائية، تتحرك بها جماعات، لا تقبل بغير امساك المقود بديلا، فان انت لاحظت أو نقدت أو ثرت، فانما انت متنطع، تحركك أهواء سحرية، ورغبة عاتية في التحطيم لا غير، هم ينطلقون من مقولة اساسية، هي ان أدبهم جيد وممتاز، وما عليك اذا اردت ان تكون ناقدا كبيرا، الا ان تفسر آثارهم، وتحللها تحليلا، يبين ما يكمن فيها من آيات البيان المعجز، والفكر النادر، الذي لا ضريب له، في الحاضر أو الآتي كذلك ا، وهي مغالطة باتت مكشوفة، ولعبة قوانينها، حفظناها عن ظهر قلب، فلندع ذلك، ولنطهر انفسنا من علائق الانانية، وشوائب الصلف والغلبة، والا نعتبر الادب، بابا لمآرب أخرى، نضيفها الى رصيد، يظل يتضخم

باستمرار، عند ذاك نستطيع ان نتواجه على الحق، والخير والصدق، ونتعاون بالنزاهة والاخلاص، لبناء حياة ادبية وثقافية، ينبغي ان تكون مزدهرة، ولارساء تقاليد نقدية، هدفها البناء الموضوعي، لا الهدم الذاتي، ومعنى هذا أن العلة الاساسية، تكمن في التركيبة الادبية، التي تتجمع وتتفرق، وتظهر وتختفي، حسب مواقيت، حدودها الهوى والغرض، فما ان يظهر أثر ادبي لشخص، له مواصفات معينة، حتى تقام الحفلات التكريمية، تمجيدا وتعظيما، تبين فيها خصال، لا وجود لها، وتعلن احكام جائرة، يمجها الذوق قبل المنطق، وهي ظاهرة اصبحت تقليدية، واجبة في تونس، ومن لم ينخرط فيها، يعد شخصا ينبغي ان يترصد لحركاته وسكناته، وان يتعقب بمثل ما يتعقب به الرافض لنواميس دينية، يجب ان نصان، ويدافع عنها بكل اسلوب، ومن اي طريق، هذا النوع من الارهاب الفكري، يتحتم ان يزول ويختفي، وهو نقطة البدء، في كل عملية ناجحة، لبعث حياة أدبية ونقدية أصيلة، اذا كانت محبة الوطن تحدونا، ومصلحة المجتمع تدفعنا، وخدمة التراث الفكري والادبي والفني لشعبنا وأمتنا، هدف من اهدافنا الاساسية، في الحياة والوجود.

ان الادب ظاهرة اجتماعية، لا ينمو ويزدهر الا في مناخ صحي حقيقة، وان النقد الادبي وغير الادبي، لا يستطيع ممارسة مهمته، ولا يتحمل مسؤوليته، تجاه المجتمع والادب والحياة، الا في ظلال الحرية، النابعة من انفس الادباء والمثقفين، أولا واخيرا.

استقلالية النقد

ما اسهل الاشادة بدور النقد في حياتنا الأدبية، وبيان أهميته الفعالة، في تمهيد الأسس الموضوعية، لتطور المضامين والاشكال الادبية والفكرية، وارتفاعها الى مستوى قيادة المجتمع، والانطلاق به الى غاياته المنشودة، في الحرية والنهضة والعدالة، ولكن ما اشقّه وأصعبه على النفس، حينما تصبح هدفا من أهدافه المحددة، يكشف توجهاتها الظاهرة والخفية، ويعلن للملأ مواضع وهنها وقصورها، واضطراب حركتها، وهي تنجز اثرا من آثار العقم والاستسلام، بل لعلها ان تتجاوز ذلك الى الغضب والصخب، تعلنها بمناسبة وبغير مناسبة، فتتخذ من بعض البدوات الشاردة التي لا يخلو منها عمل نقدي ما، وسيلة احتجاج ومدافعة، ومركب دس ووقيعة، يضبط بدقة في الخفاء، ويقدر له ان يأتي بنتيجته ولو بعد حين.

هذه ليست صورة من صور الخيال، أو لونا من ألوان المجاز والمبالغة، وانما هي حقيقة واقعة، نعيشها ونعرفها لدى الكثيرين، من الذين يتصلون بالادب والثقافة، اتصالا قويا أو ضعيفا، وهم يتجمعون ويتفرقون بمقدار ما يكون بينهم من كلام حلو مجامل، يسبغ على الاثر الادبي، ولو كان ضعيفا، فيحيله الى آية من آيات الابداع الكبرى، وبمقدار

ما يكـون بينهم من كلام جاد لا حلاوة فيه، يتعرض للاثر الادبي، فيضـعه في موضعه القريب أو البعيد، ويصنفه في نوعه ودرجته التي هو بها جدير، رضي صاحبه أم لم يرض، فلا شيء ينبغي ان يكون قبل ذلك أو بعده.

وانت تستـطيع ان تتعرف الى ذلك بيسر وسهولة، حين تلتقي ببعض هؤلاء، فانهم يحدثونك، بانهم لا يحبون الجدل والمنـاقشـة والحوار، ولا يرغبون ان يثيروا لجاجا لاطائل من ورائه، فهم ماضون في عملهم، لا يأبهون لأحد، ولا يكترثون قليلا أو كثيرا، لما يقال عنهم في هذه الصحيفة أو تلك المجلة أو ذاك الكتاب، ولكنهم بعد مدة، ينزلقون معك في حديث، كله نكر وهجر من القول، لا تدري كيف ينصب انصبابا، ولا كيف يسترسل ذلك الاسترسال المعوج السّقيم، سيقولون لك انهم فوق النقد، وان آثارهم لا تحتاج الى رأي هذا أو ذاك من النقاد، فانها شاعت وعرفها الناس، وسكتوا عنها، ولو كان بها التواء وعوج لاشاروا إليه، ولأعربوا عنه بوجه من الوجوه الممكنة.

اصحـابنـا هؤلاء، لا يحبون ان يعترفوا انهم مخطئون في تصـورهم للادب والنقـد معـا، فليس الادب مجرد كلام، ترصف كلماته رصفا، وتجرد معانيه تجريدا، ثم يدفع به الى النشر السريع او غير السريع، وانما هو اعقد من ذلك وأبعد، هو التجربة الحية في النفوس الحية، وهو معاناة الواقع الجاد،

تتغلغـل في أجـزائـه، وتخـترق يبســه وخـداعه، وتستقر في الاعماق، وهو الصورة المتوازنة التي تختزل بالفن رحابة الأرض والسـماء، وعمق الروح والقلب والعقل جميعا، وليس النقد كلاما، يرضي نوازعنا البسيطة، فيداعبها ويتملقها، وانما هو اشمـل من ذلـك وأوسع، هو الضمير يستيقظ لدى فرد أو جماعة، فيشير بما ينبغي ان يشير به، ويستقصي الكلم، فيدل على عواهنه فتجتنب، ويدل على كرائمه فتتبع، ثم لا يهتم بما ينداح في صفحة الماء، من حلقات كبيرة أو صغيرة.

ان نقادنا ازاء هذا، ينبغي ان يزدادوا إصرارا وتمسكا بما يفعلون، وان يدركـوا أن مهمتهم النقدية، في هذه المرحلة بالذات، من تطور حركتنا الادبية، هي أوكد من كل وقت مضى، وان يكـون عملهم في حدود المسؤولية النقدية التي تحملوها بجدارة، وان لا يهتموا كبير اهتمام، بما يتناهى اليهم دائما، من امتعاض وشكوى، او إغراء قاصر، يلوّح لهم به دائما، فان عملهم النقدي، هو رسالة وتبعة، ولا نجاح لاي رسـالـة من الرسالات الفكرية أو الأدبية، بغير الاخلاص والتجرد، وهما قمة المسؤولية.

واقع النقد الأدبي بتونس

توفق المركز الثقافي الدولي بالحمامات، الى ان يجمع عددا من النقاد، لدراسة " واقع النقد الادبي بنونس " في نطاق ندوة تتعـدد جلساتها على مدى ثلاثة أيام، وقد تهيأ لها من حسن التنظيم، ودقة التسيير، وخفق الطبيعة الباسم، حيث يتعانق بحر الخليج الدافي مع أشجار الربيع العطرة، ما جعل الآراء تعلن عن نفسها بصراحة، تحاول ان تتجه الى وصف خصائص هذه الظاهرة المدروسة، وتسعى بشيء من الجد، الى ان تقدم حلولا ايجابية، يمكن ان تنهض بالنقد الادبي، وتجعله يؤدي وظيفته، بالصورة التي نريدها له جميعا. وكما قال توفيق بكـار، فان هذه النـدوة، تحقق هدفا أساسيّا من أهدافها، بهذا اللقاء المباشر، الذي توفره للكتاب والنقاد.

ظلت أشياء كثيرة، تفصل بعضهم عن بعض، وتحول بينهم وبـين ان يلتقـوا على صعيد عمـل، هو جماعي في صميمـه، ثم انهم بذلـك، يستـطيعون ان يكافحوا الآراء ببعضها، وان يتلمسوا خيوط الوصل والفصل بينهم، فيعمدوا إلى تأسيس وجهة نظر نقدية متحدة أو متقاربة، يمكن ان تتطور فيما بعد، الى وضع أسس في النقد الأدبي بتونس، كما ذكر المنجي الشملي.

قسم المشرفون على الندوة الموضوع، تقسيما منهجيا، فدرسوا النقد في أجهزة الاعلام، والنقد في التعليم الثانوي، والنقد والبحث العلمي في الجامعة، والنقد بين المؤلف والناقد، وتيسيرا للعمل، فقد القيت عروض نقدية، مهدت للموضوع في أوجهه المختلفة، لكي يتاح للمشاركين ان يبسطوا وجوه الرأي التي يرتأون، وكما هو متوقع، فان النقاش كان يتخذ في كثير من الاحيان، طابع الاحتداد، النابع من اختلاف التصورات النظرية والتطبيقية لعملية النقد الأدبي، والنابع من جهة أخرى، من فكرة فوقية، لا صلة لها بما يتحقق أولا بأول، في قلب واقعنا الأدبي والنقدي.

حاولت في الكلمة التي القيتها، ان اتحدث عن الممارسة النقدية التي يمكن ان تتحقّق في صحيفة يومية، يهمها ان تخصص عددا من صفحاتها للادب ونقده، وبينت بما اعتقدت انه الحق، ان المناهج النقدية كثيرة، وان الناقد ينبغي ان يلائم بين المنهج النقدي الذي يستعمله، وبين النص الأدبي الذي ينقده، وان عددا من مناهج النقد الاوروبية، لا تتلاءم مع عدد من النصوص الادبية العربية، ضرورة ان المناخ غير المناخ، وان الحضارة غير الحضارة، والارض غير الارض، واوجزت القول في الامثلة التي ضربتها، حول النصوص الادبية التي تعرضت لها بالنقد، وانتهيت فيها الى رأي معلل، تفرضه علي طبيعة المنهج الذي آخذ به راضيا مختارا.

بيد ان النقـاش كان عنيفـا، فاق كل توقع، وخيل الي ولكثير من أهل الانصاف، ان كثيرا من منطلقات النقاش، لا يسندها منطق أو واقع، فقد اندفع بعض المناقشين زاعما، ان النقـد في كل اجهـزتنـا الاعلامية، لا يتمّ وفق الشروط المعروفة للنقد، وان اغلب الذي يكتب في الصحف اليومية والاسبـوعية، ما هو الا مجرد معلومات اخبارية، ونتف من الآراء المأخوذة، من هنا وهناك.

وكما هو واضح ـ وقد تحدثت بهذا في الندوة ـ فان اصحاب هذه الآراء، يخلطون خلطا عجيبـا، بين العـبرض الادبي للكتاب الجديد، الذي لابد ان يتعرف اليه قراؤنا الكثيرون، وبـين النقد الادبي للكتاب، جديدا كان أو قديما، والذين يتابعون صحفنا بعناية، يعلمون ان هذا النقد موجود، وانه بصفة عامة سليم، بل هو جيد في كثير من الاحيان، ثم وهو امـر مهم، اين النقـد العلمي الذي يتحدثون عنه؟ واين هؤلاء النقاد العلماء الذين نسمع عنهم ولا نرى لهم أثرا في صحفنا وفي غير صحفنا؟ هل هي حملة من حملات الانكار التي نراها تتخذ لها في كل مرة وجها، وتحاول ان تتظاهر بان الكلمة الحق والجادة، لم تقل بعد.

والحق ان أغلب كتابنا، الذين شاركوا في الندوة، يخشون نقد النقاد، حين يتعرضون لآثارهـم الادبية بما ينبغي لها من وجـوه المعالجة النقدية، وهذه الخشية تضطر فريقا منهم الى

انكار اهمية النقد اصلا، تونسيا كان او غير تونسي، انطلاقا من ان العمل الابداعي، لا يحتاج في ذيوعه وبقائه، الى حكم نقـدي بالخطا والصواب، وتضطر فريقا آخر، الى شيء من التدقيق والضبط والاحتراز، فاذا كان للنقد دوره الايجابي في كثير من بلدان العالم الاوروبي وغير الاوروبي، بما يشرح من وجوه العلاقة بين الاثر الادبي وصاحبه، وبما يقدم من الوان التصور الأدبي والفني التي تم بها ذلك الأثرفان النقد الادبي بتونس، لا يؤدي وظيفته تلك، في حدود الاصول النظرية والتطبيقية، التي اكتملت بها مناهج النقد في مختلف المدارس التي اصطلح على انها علمية، او هي تقرب من ان تكون كذلك، ثم يقول هذا الفريق : ان نقدنا التونسي ـ على ضآلة حجمه ـ جموح في احكـامه، يتسلط على الاثر الادبي فيبدده تبديدا، لا يكاد يبقي منه غير وحدات لا يمكن لها ان تتماسك بحال، او هو ينبسط للأثر، فيرفعه رفعا، ويحله منزلة، لا يمكن ان تدانى من قريب او بعيد.

نتيجـة كل هذا، ان كتـابنـا متـبرمـون بالنقـد والنقاد، ومتـبرمـون بما ينشـأ عن ذلك، من علاقة مع النقاد، تتوتر وتتنافر باستمرار، وهي اشياء لا يقبل بها احد، يريد للادب التونسي، ان ينهض وان يزدهر في كل مجالاته الابداعية.

بيدان كتابنا هؤلاء ـ من الذين استمعت اليهم في ندوة الحـمامـات ـ ولا عبرة ببعض الهـامشيين الذين تكلموا فلم

يحسنوا الكلام، وتقولوا بما لا يعرفون من فنون الادب والنقد، لا ينبغي ان ندعهم يتحدثون كما يشاءون، وان ننزل عند الآراء التي عللوا بها قضية النقد الادبي في تونس، دون ان نتعرف الى ما يجري في ساحتنا الادبية والنقدية، ودون ان نبين الخلفية الفكرية والادبية، التي يتحرك بها العمل الادبي من ناحية، والعمل النقدي من ناحية اخرى، فان النظرة الجادة الى واقعنا الادبي والنقدي، تعطينا انطباعا اكيدا، بان هذا الواقع يتحرك في اتجاهين متباينين، او قل انه محكوم بمدرستين تتباريان مباراة لا وهن فيها ولا ضعف، اما الاولى، فهي مدرسة أصيلة، تنتج الادب من منظور تاريخي، ينبع من ثقافة هذه الأرض، ومن قيمها الباقية، التي ابدعتها قرائح لا شك في قدرتها وابداعها، وانها تعتبر الادب التونسي حلقة من حلقات الادب العربي، يرتبط بكل الروابط الادبية والروحية، التي تحكم صلة الوصل الوثيق بين مختلف الاراضي العربية، اما المدرسة الثانية، فهي جديدة، تنادي بالاقليمية الادبية، وتعتبر من اهدافها الاساسية، ان يكون للادب التونسي خصوصية، ينبغي ان تتحدد وتتوضّح وتتضخم، حتى تصبح مباينة، تباين انفصام، للخصوصيات الادبية العربية الاخرى، ومن ثم فيستوي لديها ان يؤدى ذلك الادب بلغة فصيحة قويمة، او غير فصيحة مكسرة، على غير ما نعهد من قواعد اللغة والادب،

او بلغـة عامية، تحاكي الواقع اليومي الذي يعيشه الناس، حين يتجمّعـون او يتفـرقـون، بل لم لا يقال، انها تستورد افكـارها الادبية والفنية من مصادرها في الثقافة الاوروبية، الفرنسية منها بنوع خاص، وانها لا تهتم قليلا او كثيرا، بما ينشأ من انقطاع عن التراث، وعن حقيقتنا الحضارية بعامة.

ان منشـأ ذلك التنافر او التوتر، بين صنف من الكتاب وصنف من النقاد، انما يرجع في سببه الجوهري، الى ذلك الصراع الفكـري والادبي، بين المـدرستين المذكورتين، اننا بهذا نستـطيع ان نعلل لكثـير من الوان النقد الادبي، التي ظهرت منذ ثلاثين سنة تقريبا، وكلنا يذكر، حديث الفصحى والعـامية، وحديث الشعر العمودي، و " في غير العمودي والحر "، بل حديث التمشرق والتمغرب.

ان قضـية الانتســاب الفكـــري والادبي، هي القضية الجوهرية الاولى، وهي لا تشمل الادب والنقد وحدهما، وانما تشمل جوانب متعددة من حياتنا الاجتماعية والسياسية الجديدة.

بعد هذا، يتهيأ لي انه يحسن الالمام بمذهب الجامعة في ذلك، او فلنقل تصور بعض اساتذة كلية الآداب.والمعاهد العليا المتصلة بها، لواقـع النقـد الادبي نظرا وتطبيقا، فقد تتضـح أمـور التبست على الكثـيرين، وقد نجد من خفيّ التعليل، ودقيق التفكير، ما ينتهي معه كل خلاف، ويزول

به كل جدل، وهل يملك غيرهم ما يتوفرون عليه من العلم المتخصص، ومن الجهد المنظم، الذي يستهدف الأمر، فلا ينصرف عنه الا بعد ان يحلله تحليلا، ويستخرج منه اللب والجوهر!! ؟

ومع ذلك، فان كلية الآداب لا تدرس النقد الادبي، ولا تعلم طلابها مذاهبه في القديم او الحديث، ولا تشرح لهم من قضاياه، الا ما تتيحه المناسبة العابرة، عند دراسة هذه القضية اللغوية او الالسنية، او معالجة ذلك النص الادبي، وكيف ينبغي ان يشرح، ويحقق متنه، وتضبط فهارسه، ومع ذلك ايضا، فان احدا من اساتذتها، لم يعرف بتخصصه في هذا الفن العظيم، ولم يعرف بنماذجه النقدية، التي يظهر بها حول هذا النوع الادبي او ذاك من الانواع، التي يمارسها كتابنا ممارسة متصلة لا احجام فيها ولا فتور، قد تستثني من ذلك فصولا طويلة او قصيرة، تبرز لنا بعد تقطع، في هذه " الحولية " او في هذه الندوة الادبية، التي تحتمها ظروف وملابسات، ولكنها على كل حال، لا تبرز في جريدة او مجلة.

سأل سائل، في ندوة النقد الادبي بالحمامات : كيف ترى الجامعة الامر؟ فأجاب اكثر من استاذ جامعي واحد : ان النقد في معناه الواسع، يمكن ان نعترف بانه موجود ببلادنا، بل ان هناك جهودا طيبة، يمكن ان تتطور فتصبح علامة في الطريق، اما النقد في معناه المنهجي، كما نتصوره وكما نقرأه

في كثير من المجلات الاوروبية، فهو غائب او قليل الغناء، لا يسد الحاجة التي تتطلبها حياتنا الادبية الجديدة، وعلى كل فان الجامعة تسعى جهدها، لكي تعد طلابها لمثل هذه المهمة الخطيرة !! .

بيد ان الكثيرين، يجدون في هذا الرأي، ما يشبه المغالطة، فلا يدري احد كيف تعد الجامعة نقاد اللادب، فاذا صح انها تعلم بعض مسائله، فهل يمكن لها ان تتدخل في مسائل الملكات الذوقية والثقافية، التي لابد ان يتوفر عليها الناقد، وهي كما نعلم ويعلمون، ملكات معقدة، تخضع للاستعداد الفطري، كما تخضع للتهذيب المتصل، الذي يتحقق عبر دراسة الآثار الادبية والنقدية الرفيعة قديمة وحديثة، ولا نعلم ان احدا يستطيع ان يزعم، ان جامعتنا او غيرها من جامعات العالم، بامكانها ان تخرج لنا شعراء او روائيين، اقصى ما يمكن ان تخرج لنا، عددا كبيرا او صغيرا من دارسي الادب والباحثين فيه، وشتان بين الدراسة الادبية والنقد الادبي.

وجه الامر - فيما اتصور - ان كثيرا من اساتذة كلية الآداب، لا يثقون في الثقافة العربية، قديمها وحديثها، ونتيجة لذلك، فهم لا يكادون يتوقفون، لينظروا في الحركة النقدية العربية الحديثة، وما تطورت اليه في مدى نصف قرن على الاقل، ولا يهمهم ان يعلموا ما حققته " جماعة

الـديوان " ومـا ارسـاه الدكتور طه حسين وميخائيل نعيمة ومحمد مندور، من قواعد نظرية وأساليب تطبيقية ، وما ظهر من دراسات متنوعة في كثير من الاقطار العربية ، ومن بينها تونس ولا شك.

ان هذا ليس استنتـاجـا ، فقد ظهر في الندوة من فصل الامر، بان ارثنا النقدي ضعيف ، وان الحاجة تدعو الى الاخذ بالمنـاهـج النقـدية الاوروبية ، فهي الوحيدة التي يمكن ان تعتمد ، في نقدنا آثارنا جملة وتفصيلا ، اما ان هناك نقدا عربيا حديثـا ، تأسّس اعتمادا على تراث نقدي عربي عريق ، من جهة ، وعلى الاستفادة من التجارب المنهجية النقدية الحديثة ، من جهـة اخـرى ، فهو موضوع لا ينبغي التطرق اليه ، او الاشارة الى ما يحققه من جدوى !! .

وهكذا ، فان الشعار الذي يمكن ان نخرج به من هذه الندوة ، ويصدق على كل وجهات النظر المتباينة ، هو الآتي :

انا افكر وحدي ، إذن فلا شيء موجود !! ؟

(هل نضب معين الابداع ؟)

كيف نقيم الحياة الادبية والثقافية بتونس ؟

اعتقد ان الحياة الثقافية والادبية بتونس ، تجتاز الآن مرحلة من التطور، تقتضي المراجعة والتدبر، وتتطلب صراحة ونصحا ، مصدرهما الغيرة والاخلاص لهذا المجتمع الذي نعتز بالانتساب اليه ، وثقة مطلقة بقدراته الابداعية ، التي زكى بها مسيرة الحضارة البشرية ، قرونا عديدة ، وانطلاقا من هذه الرؤية ، يهمني ان اؤكد منذ البداية ، ان الوضع الثقافي والادبي ببلادنا ، ليس على ما يرام ، بل هو لا يتفق مطلقا والآمال العريضة ، التي علقتها عليه طبقات شعبنا المختلفة ، فانت لا تستطيع ان تجد فيما ينشر حولك من الوان ادبية وثقافية مختلفة ، سواء في مجال الدراسة الادبية او القصة القصيرة والرواية والمسرحية او الشعر، ما يدفع الى التأمل الجاد في قضايانا الجوهرية ، الروحية والمادية ، او يثير بيننا جدلا فكريا وثقافيا ، نراجع به مسلمات ادبية واجتماعية ، باتت جد متخلفة عن مواكبة حضارة هذا العصر العظيم .

وتتساءل فيما بينك وبين نفسك : أيكون قد نضب معين الابداع في انفس مثقفينا الى هذا الحد ؟ أو أننا مازلنا في بداية البداية لحركة ادبية جديدة ؟ او ان السلبية قد استحكمت بالنفوس فعطلت كل حركة ، واجهضت كل تجربة خلاقة ؟

غير ان كل اثـر لتلك التسـاؤلات، سريعـا ما ينقضي، عندما تلتقي بالكثير من مثقفينا وأدبائنا، في النوادي العامة والخاصة، وتتحدث اليهم في عدد من قضايا الفكر والحياة والاجتـمـاع، ستجـد ان هنـاك وعيا عميقـا بمختلف تلك القضايا، وتناولا ايجابيا لسير حركة الفكر والادب، في هذا القطر او ذاك من بقاع الارض، ولعل بعضهم يطلعك على نوع من نتـاج ادبي او فني او فكـري، ينـال رضاك، ان لم يتجاوزه الى الاعجاب، وعندئذ يتبين لك بوضوح، ان حياتنا الثقافية تتخذ لها مظهرين اثنين، ينفصلان انفصالا يوشك ان يكون تاما :

أولهـما : هو ما يلابسـك في بعض يومك، من قول ورأي، تنقله اليك هذه الصحيفة او تلك، او ذاك الجهاز، او ذاك المنبر، دون ان تجد في كل ذلك كبير غناء، يربطك بواقعك في المجتمع والحضارة، او يكون مؤشرا لميلاد مستقبل جديد.

ثانيهـما : هو هذه الحياة الفكـرية الخصبة، التي يوفرها لك لقاؤك بجمهرة المثقفين، ذلك اللقاء العفوي، الذي يصلك بجوهر الصدق، في وجدان هذا الشعب الطيب.

والسؤال هو : ما هي اسباب هذه الثنائية في حياتنا الثقافية ؟ والتي ادت ـ فيما ارى ـ الى ضياع جهود كثيرة، في محاولة رسم فكـر ثقـافي، يحقق طمـوحات اجيالنا المتعاقبة، منذ وعيها بنهضـة العصر، ان الاسبـاب ـ في نظري ـ كثيرة، بيد انه

يمكن ارجاعها الى سبب مركزي، تفرعت عنه اسباب كثيرة اخرى، هذا السبب المركزي، هو فقدان المناخ الثقافي، الذي يغري الكتاب والمثقفين بالعمل، وينخرط بهم في ملحمة نضال مستمر، من اجل بناء فكر تقدمي ينهض بالبلاد من كبوة التقهقر المزمنة، ولتنظر حولك : اين هي المجلات الثقافية والفكرية التي تستقطب الكتاب والمفكرين والفنانين، وتكون منبرا عاليا، يحمل اصواتهم الى جماهيرنا الظامئة الى الكلمة الصادقة المخلصة، والى الرأي الايجابي المبدع، ان ساحتنا الثقافية تفتقد امثال تلك النشريات الهادفة، ليس هذا فحسب، فان مؤسسات رسمية وغير رسمية، جعلت لخدمة الثقافة، ونشر خيرها بين الجميع، لا تكاد تهتمّ بأهل الرأي الحقيقيين، بل وتهمل مهمتها الاصلية، التي جعلت لها، وتنصرف الى الوان من التسلية براقة، تخدع الابصار، وتداعب الغرائز السفلى، وبذلك تضيع الجهود سدى.

قد تقول : واين وزارة الثقافة اذن ؟

ان هذه الوزارة، رغم المدة الطويلة التي مضت على تركيزها، وسط ذلك الجو من البهجة والسرور، لم تهيئ - بما فيه الكفاية - سبل النشر للانتاج الادبي والثقافي، ولم تستطع ان توفر للمثقف الحق التشجيع الضروري، لكي يصبح قوة فعالة، موجهة للحق والعدل، وقد طال حوار المثقفين معها في مناسبات كثيرة معروفة، من ان الثقافة قطاع خدمات،

كالتعليم والصحة والنظافة، وما إلى ذلك بسبيل، وان الوزارة مكلفة بالانفاق السخي، على كل عمل جدي، يستهدف المصلحة الآجلة والعاجلة كذلك، ولكنها عوضا من ذلك، نجدها تهتم بالاشراف على تنظيم المهرجانات الغنائية والموسيقية، وتنفق على ذلك الأموال الطائلة، وهي في الأثناء ـ والحق يقال ـ تقوم ببعض الأعمال الثقافية، ولكنها اعمال لا تصل إلى ما نرغب فيه، هذا من جهة، ومن أخرى، فقد تسلط على الجو الثقافي، جماعة محترفة من الانتهازيين العجزة، المتطفلين على الأدب والثقافة، يدبرون الأمور وفق مصالحهم الشخصية البحتة، فتراهم يحاربون هذا ويتفننون في التضييق على مبادراته الايجابية ـ ويتكأكأون ـ حول انفسهم، يرددون أوهاما، ويلفقون أشياء لا صلة لها بالثقافة، وانك لتجدهم حاضرين في كل مجلس، وفي كل هيئة يتصدرون المنابر، متجاوزين أصحاب السعي الحقيقي.

ونتيجة لكل ذلك، ساد هذا السكون المخيف حياتنا الثقافية، واقبل المتطفلون بالثناء على هذا، والقدح في ذاك، وخلت الساحة من أصوات كثيرة، لها قدرة وابداع، آثرت الانزواء مرغمة، ولفها الصمت الحزين.

ان أمامنا مهمة صعبة، لخلق الثقافة التي نريد، ولابراز الأدب الذي يتفق وتحرك جماهيرنا لصنع المستقبل الأفضل، وان الأمل معقود بوعي المثقفين لمنزلتهم، بالنسبة إلى مجتمعهم، وإلى عصرهم، العمل صعب لا محالة ولكنه مشقة لابد من النهوض بأعبائها، فالثقافة والأدب مسؤولية وموقف في آن.

في بداية التجديد الأدبي

ينبغي أن نعترف، أن جل فنوننا الأدبية الحديثة، كالمسرح والقصة القصيرة والرواية، هي فنون جديدة على أدبنا العربي، انفتحت لها قرائح كتّابنا، بعد ذلك الاتصال القوي العنيف، الذي شهده أواخر القرن الماضي، وتدعّم في القرن الحالي، نتيجة للحضور الأوروبي المكثف في كثير من أقطارنا، عسكريا واجتماعيا وثقافيّا، ونتيجة للبعوث التعليمية التي قمنا بها في اتجاه الجامعات والمعاهد الأوروبية، في نطاق سياسة تعليمية، اتخذت لها من النموذج الأوروبي المهيمن عالميّا، وسيلة وغاية، وهو اختيار مايزال قائما إلى اليوم، إلا تغييرات طفيفة لا يعتدّ بها.

والذي يبدو أن هذه الفنون الحديثة قد تأصلت في حياتنا الأدبية تأصلا عميقا لا سبيل إلى تغييره أو تجاوزه، غاية ما يمكن تحقيقه هو التعبير الخاص عن الذات العربية، وإبراز هويتها الوجودية والحضارية في سعيها المتصل للدفاع عن الكيان المهدّد، شرقا وغربا، ويعني هذا، أن التعبير والابداع من خلال الأشكال الأدبية الحديثة، هو سمة من سمات أدبنا

الحديث، وأن تطوره الذي نشهد حجمه الآن، يستقيم مرة ويتأرجح أخرى، قد اقترن منذ البداية، بمحاولته مواكبة ألوان الحداثة، التي تستجدّ في أوروبا وغير أوروبا، فترة بعد فترة، وستمضي مدة تطول أو تقتصر، قبل أن يتفرغ العقل العربي، لابداع حداثته الخاصة به، شكلا ومضمونا، أو على الأقل يساهم مساهمة إيجابية، في اثراء النظرية الجديدة، في علوم اللغة والنفس والاجتماع وسائر هذه العلوم التي أصبحت متحكمة بمفاتيحها الدقيقة، في توجيه الفكر والأدب والفن، وفي تنظيم أساليب فهمها والسيطرة عليها كذلك.

بيد أن الرجوع إلى البدايات، بدأت التجديد والتحديث الأدبي ـ وسيكون حديثي هنا عن القصة والرواية ـ يفيد كثيرا في فهم هذا المسار العريض، الذي ينطلق فيه أدبنا، فقد كان إحياء المقامة، هذا الفن العريق في تراثنا ـ رغم قلة النصوص التي وصلت إلينا ـ محاولة جادة وهامة لاقامة فن قصصي يستند إلى تراث له سمات معينة، وكانت كتابات حديث عيسى بن هشام، ومجمع البحرين وليالي سطيح، أعمالا جديرة بالتقدير والثناء، لأن أصحابها تفطنوا منذ البدء، إلى جوهر المقامة، القائم على حدث يتطور، من خلال شخص أو شخصين أو أشخاص، حين يمارسون أنواعا من النشاط، تستهدف إبراز موقف ما، أو تحقيق فكرة معينة، أو أحداثا مفارقة، مضحكة وغير مضحكة، من هذه المفارقات الكثيرة التي تمتلئ بها حياة

الناس، في كل زمان ومكان، ولكن هذا لا يكفي لبناء قصة أو رواية، لها مواصفات القصة القصيرة أو الرواية الحديثة، إذ وجدنا السرد القصصي في هذه المقامات الاحيائية، مثقلا إلى حدّ بعيد بقيود البديع والغريب، التي لا تهتم بالحدث قدر اهتمامها بما يبهر القارئ، من ألوان السجع والاشارات البعيدة، والحرص على إيراد المثال والحكمة والنادرة، فكان وقعها غريبا في الأذواق التي تغيرت بفعل الزمن، وانقطعت صلتها أو كادت، بمقامات البديع والحريري، ولم يحدث بعدها التواصل الذي كان حريا بتجديد شكلها ومحتواها، ومن هنا فلا غرابه أن المثقفين المبدعين منهم بخاصة، ينظرون إلى هذه الأعمال باعتبارها صدى للمقامات القديمة، ومتونا لحفظ سلامة اللغة، قد تسعف من يهتم بتدقيق لغته، فصاحة وبلاغة، ولكنها لا تهمّ هذا القارئ الذي يريد أن يقرأ قصة، تخاطب فكره وشعوره، وتحدث في نفسه ما لابدّ أن تحدثه كل قصة، من دلالات هي صدى لحياته ولحياة الآخرين من حوله.

ومن غير شك أن انصراف القارئين عن هذه المحاولات، كان من أهم الأسباب لتجمّدها في مكانها، وبالتالي التوجّه إلى ارتياد هذا الفن الحديث، الذي أخذ ينتشر ويشيع في أوروبا وفي البلاد العربية نفسها، بالترجمة، والاقتباس والتلخيص، وبالاطلاع المباشر على هذه النصوص

القصصيّة، لمن أتيح له الالمـام باحدى اللغات الأساسية، فرنسية أو انقليزية.

حدث هذا التـطور، وبـين أيدي مثقفينـا الأوائل، من الأحيائيين ومن تلاهم أيضـا، مادة قصصية حيّة متـوثبـة، يبـاشرونها في العـديد من كتب الـتراث الأدبي، ويعلنـون اعجابهم بنسق كتابتها، وبالتلقائية الجميلة التي تصوّر حركة الناس، وما يجدّ بينهم من صراع الأهواء والمصالح وما يكمن خلف ذلك من نوازع الطباع والغرائز، هي فن الخبر، الذي تزخر به كتب الجاحظ، خاصة كتاب البخلاء، وأسمار أبي حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة، وفي أغاني أبي الفرج الاصفهاني، الذي اكتملت فيه مقومات الخبر القصصي إلى مستـوى رفيع، يضـاهي أروع الآثـار القصصية في العـالم القـديم، وسـوى ذلـك من الآثار المشابهة، موسوعية وغير موسوعية، ومع ذلك فان روادنا الأوائل لم يكتشفوا أهمية هذا النوع القصصي، روائيا كان أو غير روائي، خاصة أنه يخلو تماما، حتى في أقدم نصوصه، من كل أثر للصنعة أو التكلف اللغوي، التي قيّدت حركة أصحاب المقامات، وحتمت أن يدوروا في أنماط من التعبير، لا يستطيعون تجاوزها ولو كانت حركـة الأحـداث والأشخـاص تقضي بغير ذلك، ولو أتيح لروادنـا إحياء هذا الفن، لكـان لأدبنـا العـربي الحـديث شخصيته القصصية والروائية المتميزة، التي يستطيع أن يقف

بها بجدارة، أمام نماذج الابداع القصصي الأخرى في الآداب الأجنبية، ولاستطاع بالتالي، أن يلفت الأنظار إلى هذه التجربة الفريدة في حركة الآداب، قديمها وحديثها، ولكن يبدو أن مثقفينا الأوائل انبهروا شديد الانبهار، بما شاهدوا من ألوان العلم الأوروبي، ومن التقدم المذهل في شتى ميادين الفكر والحضارة، فأصابهم شيء من عمى الألوان عما بين أيديهم، وقرت في أنفسهم قناعة مؤداها أن تخلفنا الحضاري بالقياس إلى أوروبا، يشمل كل شيء، وأن الأدب والفكر العربي في الصورة التي يبدو بها في ذلك الوقت، ليست له القدرة على التمرس بتجارب العصر الجديدة، والتعبير عما طرأ على الحياة الاجتماعية العربية من ألوان التطور والتجديد، وهكذا ضاعت فرصة تحديث أدبنا القصصي والروائي، انطلاقا من التراث، وأضعنا جهودا عزيزة علينا في تعلم مفردات وأوليات مبادئ القصة والرواية، كما تسير بها الحياة الأدبية في أوروبا، وصار واجبا علينا تبعا لذلك، أن نلاحق الجديد، ونلهث وراء معرفة خفاياه التراثية في الحضارة الأوروبية، ورغم ذلك فاننا نحس اننا لم نزل بعيدين عن الوصول إلى المنزلة البعيدة، التي وصلت اليها القصة والرواية في أقطار عديدة من العالم.

حول الابداع والتجربة

هناك سؤال يتردد باستمرار، قرأته وسمعته وفكّرت فيه، هو لماذا لم تنجب النهضة الأدبية بتونس، وأراضي المغرب العربي الأخرى، أعمالا ابداعية كبرى، في الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح يمكن أن تقف إلى جانب روائع الأدب الأجنبي في أوروبا الغربية والشرقية، وفي أمريكا الشمالية والجنوبية ؟

والسؤال فيما اتصور، لا ينكر كثيرا من الأعمال الأدبية المغربية، التي حاولت الخروج عن قواميس التقليد والجمود، التي سيطرت طويلا على حياتنا وآدابنا، وساهمت بشكل أو بآخر، في هذا الاحساس الواضح أو الغامض، بروح العصر الجديد، وبايقاع الزمن المتغير أبدا، ولكنه يتجاوز ذلك إلى نوع من تقويم آثارنا الابداعية، والبحث عن منزلتها بين الآداب الأجنبية الحديثة، بل هو قد يشير اشارة ما، إلى هذه التبعية الفكرية والأدبية والفنية، التي مازالت تسيطر على كتابات كتّابنا، وتسلكهم في عداد المتعلمين، الحريصين دائما على أن يتخذوا قدرة، يترسمون خطاها، وأعمالا أدبية أجنبية، يستوحون منها فكرة أو رأيا أو أسلوبا.

وبالتأكيد كما يعرف المثقفون، أن الآداب العظيمة لا تبرز وتزدهر إلا في مناخ حضاري معين، وانها في تحليلها المنهجي، نتـاج تقدم اقتصادي واجتماعي، وصيرورة تفاعل، فكري وثقافي عميق، ينتهي بالجماعة إلى قناعة راسخة، بحق الفرد في الحرية والتفكير والتعبير، بيد أن الكاتب المبدع، يملك من سلطان نفسه ما لا يملكه الآخرون من العاديين من الناس، هو متأثر بجماعته وبيئته، ولكنه مؤثر فيها أيضا، وبالتالي فهو يملك ـ وفق شروط معينة ـ أن يبدع الأثر الذي يبقى وينتشر، ولن تستطيع سلبيات التخلّف الاجتماعي، أن تحول بينه وبين ما يريد، كما تشهد بذلك أعمال من كتّاب أمريكا اللاتينية، الذين بدأوا يحتلّون واجهات الابداع الروائي، والقصصي في العـالم، إني لا أنكـر ـ كما هو واضـح ـ الأثـر الاجتـماعي والسياسي المتخلف، الـذي يحدّ من انـطلاقة الكتاب نحو التجـديد الحق، والابـداع المتميز، ولكني أريد أن أطـرح موضوعا، هو في الحقيقة إجابة عن السؤال الذي صدّرت به هذا الحديث، فقد رأيت من خلال قراءاتي في الأدب القديم والحـديث، أن الآثـار الابـداعية المتميّزة، وهي التي ظلت سائدة ومنتشرة عبر العصور، ولازالت تجد لها المكانة الرفيعة بين قراء عصرنا، هي الآثار التي كانت نتاجا لتجارب فردية متميزة أيضا، فأشعار امرئ القيس والمتنبي وأبي العلاء وأبي العتاهية وبشار وأبي نواس، وكتابات ابن المقفع والجاحظ وأبي

حيان التوحيدي وابن خلدون، لم تكن في الحقيقة الا انعكاسا موضوعيا لتجارب نفسية وسياسية واجتماعية قاسية إلى أبعد الحدود، لقد مرّ هؤلاء جميعا بمحن فكرية وشخصية واجتماعية، تتجاوز المألوف والعادي، بل يمكن إدراجها في باب المغامرة غير المحسوبة، حساب الربح والخسارة إن ابن خلدون ـ مثلا ـ ما كان له أن يكتب أثره الخالد ـ المقدمة ـ لولا الحياة المتنوعة العنيفة التي عاشها واضطرب بين أكنافها، وهو نفس ما ينعكس في آثار كتّاب أوروبا وأمريكا العظام، فهمنغواي وفوكنر وعزراباوند، وكافكاوجويس وكامو وسارتر، وماركيز وبورخيس، وقائمة طويلة أخرى من هؤلاء الكتاب الكبار الذين يمثلون ثقافة هذا العصر الحديث، كانوا جميعا بلا استثناء، أصحاب تجارب عميقة ومتنوعة، .لا تحد بمغامرات الحرب والسلم، والتجوال بين كل قارات العالم، وأماكن الخطر فيها، وإنما كذلك بمواقفهم القاطعة الصارمة من قضايا عصرهم، وقضايا الحرية والانسان في كل مكان.

إن الانعزال في ركن هادئ ومتابعة الآثار المكتوبة، والتمعن في أساليب صياغتها وأفكارها، شيء هام ولاشكّ، وضروري أيضا، ولكنه لا يؤدي بتاتا إلى إبداع أثر يمكن أن يبقى ويستمرّ لأن الابداع الأدبي العظيم، هو ثمرة تجربة فريدة، وحياة عظيمة.

بيد أن الحـديث عن الابداع والتجربة، لا يكتمل ـ في نظري ـ الا بالوقوف عند عدد من كتّاب العربية في عصرنا الحـديث، كانت حياتهم حقـولا ممتـازة لأعـمال أدبية وفنية وفكـرية، مازالت تستـأثـر باهتـمام النقـاد والدارسين، هنا وهناك، في الشرق والغرب، بل هي على التحقيق أسس هذه النهضة الأدبية الحديثة، التي أخذت تتسع وتتقدم وتتطور، جاهـدة ما وسعهـا الجهـد إلى تحقيق نمـوذجهـا الخـاص، وتصورها الفريد، في عصر لا يأبه الا بالامتياز والاقتدار والتجديد.

فهـذا طه حسـين يتحـدّى ظروفـه الجسمية والاجتماعية والسياسية والتعليمية، ويضرب بارادتـه الحـديدية، جمود الحياة من حوله، ومن حول الآخرين، فيحقق الطموح الذي يريد، وأسلوب الحياة الـذي به يحلم، غير آبـه بالصعـاب والعثرات، ولا بأنواع الألم والقسوة والأحزان، ومؤلفاته الكثيرة ولاشك، مدينة لتلك التجارب العميقة التي شكلتها رحلته في هذا الوجود، ومن خلالها نلمس شدّة وقع الحياة عليه، وهو يضطرب في الصعيد طفلا، أو حائرا بالأزهر غلاما، أو دارسـا جادّا ببـاريس شابّا، أو أستاذا وأديبا مجددا وسياسيا بارزا بالقـاهـرة، كهـلا وشيخا، وإن أحد وجوه الروعة في "الأيام" بأجـزائها الثلاثة، انها ترجمت بدقة مفردات تلك الحياة الزاخرة بألوان المعاناة، وما أحاط بها من صنوف التعب

والارهاق، والعزلة والألم، وما قد يكون تعرضت له من فشل ونجاح، أو بهجة وانكسار، وهذا عباس محمود العقاد، يثقف نفسه تثقيفا ذاتيا، لا يعتمد فيه على أحد، ويرسم لنفسه نمطا من السلوك، لم يقبل أن يتغير أبدا، ويقيم علاقاته بالآخرين، أشخاصا وجماعات وأحزابا، على أسس ثابتة، لابد أن تحترم فيها الكلمة، ولابد أن يجد من خلالها المكانة التي هو بها جدير، فقد روي أن زعيم الوفد مصطفى النحاس باشا، دعا العقاد يوما، وطلب إليه ان يكف عن مهاجمة الحكومة القائمة، التي كان يدعمها الوفد، فأبى العقاد الا أن تعتدل الحكومة في بعض ما كان يطالب به، ويطالب به الآخرون، عندها غضب النّحاس، وقال "ألا تعلم يا عباس أني زعيم الشعب بالأغلبية" ؟ فأجابه العقاد فورا : " ولكن ينبغي أن تعلم يا باشا أني كاتب الشرق بالحق الالهي" وكانت القطيعة بين الوفد والعقّاد، منذ تلك اللحظة إلى أن خرج العقاد من هذه الدنيا، وقد قاسى العقاد الكثير من أمثال هذه المواقف وتعرضت حياته لمآزق وألوان من الفشل، لا ندري بالدقة كيف تجاوزها وانتصر عليها، آخرها ما ذكره توفيق الحكيم في بعض أحاديثه الصحفية : أن العقاد تعرض لضائقة مالية شديدة، فضرب موعدا لأحد ناشري كتبه، ولكن الرجل تأخر تأخرا لا يحتمل، فعزم العقاد على الانتحار، وكتب وصيته بالفعل، وبينما كان يهم باطلاق النار

على نفسه، إذ بالناشر يقتحم مكتبه، وينجو العقاد من هذا المصير البائس، يقدم العقاد على ذلك، وهو العلم الشهير، الذي تكفي كلمة واحدة منه، لهذا أو ذاك من الناس، حتى يحصل على كل ما يريد.

هذان مثلان ضربتهما، لكي تعلم أجيالنا الجديدة، الخلفية الحاسمة التي تتحكم في الأثر الأدبي المبدع، وأن الأمر ليس أن نكتب، وإنما ماذا نكتب؟ فالكتابة الباقية، معاناة حقيقية وتجربة حيّة تتلظى، معاناة شكل فني، وبحث دائم عن الجدة، وتفكير متصل في آثار الآخرين، ولكن الجوهر الأصلي في العملية الابداعية، هو ذلك التراكم المعرفي، من أحاسيس الشعور والفكر والخيال، الذي سجلته حياة متعددة الجوانب، صمدت لتقلبات الأحداث، وتعرضت لتجاوزات الدهر، فأخذت منها ما يليق ويجدر وينفع، همها الأول، أن تقرأ ما يفيد ويمتع، ويترقى بالأذواق والنفوس، إلى حيث يتاح لها، أن تمارس مشروعها الوجودي الحضاري، بكل تبصّر ووعي وانتباه.

جوهر الحضارة

أحدث إعدام الشيخ محمود محمد طه، زعيم الاخوان الجمهوريين بالسودان، حركة واسعة من التعاليق والمواقف والآراء، تجاوزت بيئات الفكر والثقافة، إلى بيئات السياسة والاجتماع يمينا ويسارا ووسطا، واهتم العاديون من الناس، بهذه القضية اهتماما غير مألوف، من خلال السؤال والاستفسار، ومن خلال الدهشة التي تعكس الحيرة والريب والخوف.

ومصدر هذا الخوف وتلك التعاليق والمواقف - فيما أتصور - أن القضية بالشكل الدموي الذي تبدّت به، تمثل علنا وبكل تحدّ، موقفا صداميًا من الحريات الخاصة والعامة، وحقوق الناس الطبيعية، في الفكر والعقيدة والتعبير والكلام، فتعيد للأذهان سلطة الاطلاق القديمة التي طالما هيمنت على العقول والأيدي، وكبّلت الحركة والسعي عن الانطلاق والابداع والتجديد، وحتّمت على شرقنا العربي الاسلامي، ذاك القعود والتخلف الذي مهّد دون جدال، للحركة الاستعمارية الأوروبية وقيام اسرائيل، وهيّأ لها بالتالي أن تستغل الثروات الباطنة والظاهرة، وأن تمد ذراعها الطويلة، فتمزق الكيان الموحد إلى أجزاء متناثرة، لا قدرة لها على الصمود والدفاع.

لقد تتبعت ـ في حدود الامكانات المتاحة ـ قضية الشيخ طه، وظروف اعتقاله ومحاكمته ثم اعدامه، فاستغربت أيما استغراب أن يدان، لأنه قال رأيا لا يتفق ورأي قضاته، لقد زعموا أن آراءه تتناقض مع بعض الأحكام الاسلامية، وانه يحاول أن يأتي بجديد لم يألفه السابقون، والذي نعلمه من خلال التاريخ الاسلامي، سيرة وفقها وقضاء، أن المسلم المجتهد أفضل من المسلم المقلد، وأن البحث والتدبر والتفكير للوصول إلى جوهر الحقيقة الاسلامية، هي أمور تكليفية واجبة، ينهض بها أهل القدرة والرأي والاستطاعة، دون أن يطالبوا بالوصول إلى نتائج يرضى عنها،هذا أو يغضب عنها ذاك، المهمّ هو البحث والاجتهاد، وإن الاستغراب ليبلغ أقصى مداه، حينما نقرأ في حيثيات إعدام الرجل، أنه يقول بوحدة الوجود وبالحلوليّة، وما شابه ذلك من مقولات المتصوفة والشيعة، فهل أصبح تراثنا الصوفي والشيعي، محل محاكمة هو أيضا؟ ا ماذا يتبقّى إذن من تاريخنا الفكري والأدبي والحضاري بعامة، لو أخرجنا منه ذلك التراث الشامخ، من رؤى ابن عربي والسّهروردي وابن الفارض والجنيد والحلّاج؟ ماذا يحدث أيضا لو أخرجنا أهل الشيعة وهم متوزعون في كل القارات تقريبا من ربقة الاسلام؟

إن القضية ليست أخطأ الرجل أو أصاب، وإنما هي تجاوزت ذلك إلى وصاية على الفكر، وإلى إلزام بمنهج معين

لا بديل غيره، قد يكـون الرجل تطرف إلى حدّ الغلوّ، قد يكـون تجرّأ إلى حدّ الأسراف، ولـكـن ذلـك في نظر كل العقـلاء، لا يبرّر الحكم بتصفيته جسديّا، ولا إلى التشهير بآرائه، هذا التشهير الذي لا يلتزم آداب الاسلام السّمحة، ولا يراعي حق الحوار مع معتنقيه ومخالفيه أيضا.

لقد قامت نهضتنا الحديثة منذ البداية، على إحياء العناصر الحيّة وبعثهـا من تراثنـا الفلسفي والديني والأدبي، فعرفت أجيالنـا المتعاقبة، محاورات الغزالي وابن رشد، في "تهافت الفلاسفة" و"تهافت التهافت" وعرفت مناقشات فرق أهل الكلام، من معتزلة وسنة ومرجئه وشيعة وخوارج، وتتبّعت ما كان بين أنصار المذاهب السنية الأربعة من آراء وتخريجات، ثم انفتحت للفكـر الحـديث ومـا يزخـر به من مدارس فكرية متصـارعـة، ونتيجـة لذلـك وفي ظل هذا المناخ الفكري، القـديم والحـديث، ترعـرعت نهضتنا، واستقام وفقها فكر أجيالنا الجديدة، معتمدين حرية البحث في كل ما يقبلون عليه، من صنوف العلم والأدب والتاريخ والطبيعة يحدوهم تصّور أساسي، أن حرية الفكر العلمي والديني والأدبي، هي جوهر كل حضارة ازدهرت في التاريخ، وأن انسانية الانسان، تتنافى وأي وصاية مهما كان مصدرها.

إن المكاسب الكبيرة التي حققتها أجيال النهضة المتعاقبة، والتي رفعت شعاراتها جماهيرنا العريضة في وجه المد الاستعماري منادية بالحرية والديمقراطية، وكل الحقوق الطبيعية والاجتماعية الأخرى، ليس من السهل ضربها وتخريبها، فقد تشربتها النفوس إلى النخاع، واستقرت وعيا حديدا، لابد أن يهزم كل منّاع أثيم.

خطران

منذ سنوات عديدة، بدأت الساحة الفكرية والاجتماعية العربية، تعرف نموّا لا يخلو من عنف، لألوان من الفكر الديني والثقافي والسياسي، تتعلّل بالاصلاح والتطور والتغيير، والحرص على مصلحة الجماعة والشعب والأمة، واخراجها من ركود التخلف إلى التمدّن والتحضر، هذه الألوان كثيرة ومتناقضة أحيانا، ولكن يمكن حصرها منهجيّا في تيّارين أساسيين، أو مدرستين إن شئت، هما : السلفية والتغريبيّة.

أما المدرسة السلفية، فهي وإن امتدت جذورها بعيدا، في تاريخنا العربي والاسلامي، إلا أنها كما تتبدّى لنا الآن، من خلال أطروحاتها النظرية، وممارستها التعليمية والعملية، تكاد تفتقد مقوّمات نسبتها لجوهر الحضارة العربية الاسلامية، ذلك أنها منغلقة في حدود فقهية معيّنة، تنحصر اهتماماتها في القوالب والأشكال، رافضة كل المدارس الفلسفية والكلامية والفكرية الأخرى، التي تزخر بها حضارتنا الشامخة، بل إن قراءتها للنصوص الأصلية، قرآنا وسنة، تتسم بسطحيّة وجفاف، لا يليقان حتما بما يتوفّران عليه من عمق وثراء، وإشارات وأبعاد، هي جوهر خلود

الرسالة المحمديّة، وهي ببياناتها المتكررة، تذكرنا ببعض فصائل الخوارج، الذين آخذوا الناس بالصغيرة والكبيرة وكفّروا الأئمة والصحابة، محتكمين إلى العنف باليد واللسان، طريقا إلى الاقناع والالزام، هذا الانغلاق الفقهي أدّى حتما إلى رفض فكر الأحيائيين الدينيين الكبار، أمثال السيد جمال الدين الأفغاني والامام محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم من دعاة الاصلاح الديني في العصر الحديث، ولقد قرأت في أوقات متباعدة، وفي بلاد عربية مختلفة، إدانة واتهاما لهؤلاء المصلحين، بأنهم فتحوا الأوطان الاسلامية في وجه الثقافة والعلم الأوروبي الحديث، وأنهم كانوا أداة صالحة في يد الاستعمار الثقافي والعسكري، ونسي السلفيون الجدد، أن هؤلاء المصلحين لم يرفعوا أصواتهم بالاصلاح والاجتهاد والتجديد، إلا بعد أن درسوا الدين والحضارة، وتعمّقوا حقائق الاسلام كما وردت في التنزيل المحكم، وآثارهم الباقية تشهد لهم بذلك هذه المدرسة لا تكتفي بموقفها هذا من الفكر الديني الاسلامي، قديما وحديثا، وإنما تنادي أيضا برفض الحضارة الحديثة جملة وتفصيلا، وترى أن مواجهة قضايا العصر الكبرى والصغرى، لا يمكن أن تكون الا بنفس المواقف القديمة، التي حدثت في بعض فترات تاريخنا القديم والوسيط، وبذلك تلغى كل كشوف العلم الحديث، وما حققته الانسانية عبر صراعها المرير للنفاذ إلى جوهر الطبيعة والنفس والوجود.

وأما المدرسة التغريبية، فلها شأن آخر، لايقل خطرا عن المدرسة السلفية الجديدة، هي تنادي بالحداثة والمعاصرة لا محالة، ولكنها حداثة من نوع خاص، إذ أن الحداثة في نظرها، لا تقوم إلا على الفراغ قبل البناء يجب الهدم، هدم التراث والعادات والقاليد، كلّ ما هو موجود في النفس العربية والعقل العربي، من رأي وفكر وثقافة، رجس من عمل شيطان التخلف، يجب أن يزول، ولها أساليب خفية وظاهرة في الدعوة إلى فكرها وترسيخه، في أذهان السذّج من الناس، وقد أدت محاولاتها العديدة، إلى إفساد قطاع عريض من واقع الناس وحياتهم الطبيعية والاجتماعية، وبات لزاما على ذوي البصائر، أن ينهضوا لكشف الخلفية الفكرية الاستعمارية المترسّبة، التي تدفع أصحاب هذه المدرسة، وتحركهم في كل اتجاه.

نحن إذن أمام خطرين قائمين، أحدهما يتوسّل بالدين، ويرى أن الفكر والدين والحياة بعامة لها بعد واحد، وأن المجتمع لا سبيل إلى اصلاحه، إلا وفق نظرة خاصة محدّدة، ترفض ما عداها من ألوان الرأي والفكر والاجتهاد، وتقيم سدا منيعا، من التعصب والفوضى، ضد كل ما هو حرّ وحديث وجديد ومعاصر، وثانيهما يتوسل بشعار برّاق هو الحداثة والتحديث، ويعلن بحسم أن إرثنا الحضاري، فكرا وأدبا ولغة ودينا، لم يعد صالحا لهذا العصر، ولا أمل في انقاذ

المجتمعات العربية، الا بتغريبها الكامل، وإحلال الحضارة الأوروبية في وجدانها وحياتها، محلّ الحضارة العربية الاسلامية.

وهكذا أصبحنا مهددين تهديدا حقيقيا، في وجودنا الفكري والثقافي والاجتماعي، أفرادا وشعوبا وأمة، وصارت هذه النهضة التي انتجتها أجيال من الرّواد والكبار، وتفتّحت لها أذهان ووجدانات جماهيرنا، عرضة للتخريب والافساد، ونحن نرى أن السكوت والصمت، إيثارا للعاقبة، مؤذن بالخراب لأن القضية قضية دفاع عن الحق والعدل والحرية، وفهم أشمل وأعمق، لمعاني الدين والفكر والحضارة، من وجه، ودفاع عن شخصيتنا العربية الاسلامية، وصيانتها من الذوبان والاستلاب من وجه آخر.

الفهرس

الصفحة





المؤلف في سطور



- ولد بتونس في 1937/03/7

درس بجامع الزيتونة، فأحرز على شهادة التحصيل العلمي.

- درس بجامعة القاهرة، ونال من كلية آدابها، شهادة الليسانس في الآداب واللغة العربية.

- عمل أستاذا بالمعاهد الثانوية في تونس، والسعودية وليبيا، ثم عيّن أستاذا باحثا بالمعهد القومي لعلوم التربية.

- عضو باتحاد الكتاب التونسيين، واتحاد الكتاب العرب بدمشق.

- كتب الكثير من الدراسات والمقالات، في المجلات والصحف التونسية والعربية.

- صدر له من المؤلفات حتى الآن:

- 1 في الأدب التونسي المعاصر.
- 2 مواقف فكرية معاصرة.
- 3 من أدب الرواية في تونس.
- 4 نقد وتأصيل.

تم طبع خمسة آلاف وخمس مائة نسخة من هذا الكتاب

الثمن: 1.600 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.